دكتور محمد حسن شرشر
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
جامعة الأزهر

البناء الصوتي في البيان القرآني

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر ـ القاهرة

دكتور محمد حسن شرشر
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
جامعة الأزهر

البناء الصوتي في البيان القرآني

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين . سيدنا محمد الذي أرسله الله لإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور اليقين .

وبعد :

فمن الخصائص العليا التي امتاز بها بديع النظم القرآني ، المسحة اللفظية التي تتجلى في اتساق القرآن وائتلافه ، اتساقاً عجيباً . وائتلافاً رائعاً يسترعى الأسماع ، ويستهوى النفوس .

كما تتجلى في رصف حروفه ، وترتيب كلماته ترتيباً دونه كل ترتيب ، وهذا قبس من « البناء الصوتي للبيان القرآني » أرجو أن ينفع الله به ، وأن يكون لي ذخراً يوم الدين .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المعادي الجديدة في { ١٢ شعبان ١٤٠٨ هـ
٣٠ مارس ١٩٨٨ م

د . محمد حسن شرشر

النغم فى اللغة العربية

إن الصوت — كما يقول الجاحظ — هو آلة اللفظ ، والجوهر الذى يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظا ، ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت ، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف(١) .

والعرب يذكرون الكلام الموزون ، ويمدحون به ، ويفضلون إصابة المقادير ، ويذمون الخروج من التعديل(٢) .

قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره(٣) .

ولعل السر فى هذا هو ما فى الشعر من انسجام المقاطع وتواليها ، بحيث تخضع لنظام خاص فى هذا التوالى ، ومتى دربت الآذان على هذا النظام الخاص ألفته وتوقعته أثناء سماعها ، ومثل الوزن فى هذا مثل كل شىء منظم التركيب ، منسجم الأجزاء . يدرك المرء بسهولة سر توالى أجزائه ، وتركيبها خيرا ، مما يمكن أن يدرك المضطرب الأجزاء الخالى من النظام والانسجام .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ — ٧٩ (٢) المرجع السابق جـ ١ — ٢٢٧

(٣) المرجع السابق جـ ١ — ٢٨٨

والكلام الموزون ذو النغم الموسيقى يثير فينا انتباها عجيبا، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة، تنسجم مع ما نسمع، لتتكون منها جميعا، تلك السلسلة المتصلة الحلقات التى لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى، والتى تنتهى بعدد معين من المقاطع، بأصوات بعينها، نسميها القافية، فهو كالعقد المنظوم، تتخذ الخرزة من خرزاته فى موضع ما شكلا خاصاً، وحجماً خاصاً ولوناً خاصاً، فإذا اختلفت فى شىء من هذا، أصبحت نابية غير منسجمة مع نظام هذا العقد(١).

يقول القاضى عبد الجبار : أما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسنا على السمع(٢).

---

(١) موسيقى الشعر ١٣ (٢) المغنى ٢٠٠

ظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية

وظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية ، تعزى فى أغلب عناصرها إلى تلك الأمية ، حين كان الأدب ، أدب الأذن ، لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على مسامعهم فى الحكم على النص اللغوى ، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو إيقاعه ، وتأبى آخر لنبوه ؛ أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز .

وكما تمرن الآذان فى بيئة الأميـــة ، تمرن الألسنة أيضاً ، فتنطلق من عقالها ، وقد اكتسبت صفة الذلاقة ، فلا تتعثر أو تزل أثناء النطق وتتعاون الأذن مع اللسان فى مثل تلك البيئة على إيثار العناصر الموسيقية من اللغة ، ونفى العناصر النابية والتخلص منها ، ويؤدى هذا مع مرور الأيام — وبشرط أن تظل الأمة فى نهضتها الاجتماعية والحضارية - إلى انسجام فى أصوات الكلام وحركاته ومقاطعه ويقترب بذلك إلى نوع من الموسيقى أو الغناء(١) .

والصوت له قيمة سمعية فى اللغة العربية ،فكل حرف له صوت ترجع طبقته من التنغيم إلى مخرجه من جهاز النطق . وقد قام العلماء بتشريح هذا الجهاز ، وبيان المخارج التى تنتسب إليها حروف الهجاء العربية وكأنها أوتار يعزف عليها اللسان ، فيخرج من كل وتر صوت ، فتسمع الأذان من هذا همساً ، ومن هذا جهارة ، ومن أحدها رخاوة ومن الآخر شدة ، وتأليف الكلمة من حروفها ، كتأليف اللحن من نقراته ، كل يعبر تعبيراً تحسه الأذن ، ويفسره العقل والوجدان التفسير اللائق بإيقاعه(٢) .

---

(١) دلالة الألفاظ ١٩٥   (٢) التكرير بين المثير والتأثير ١١

التلاؤم وفائدته

ومن ثم فإن التلاؤم — كما يقول الرمانى — نقيض التنافر ، والسبب فيه تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل ، كان أشد تلاؤما .

والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع وسهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريقة الدلالة ومثل ذلك ، مثل قراءة الكتاب ، فى أحسن ما يكون من الخط والحروف وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة .

ومخارج الحروف مختلفة ، فمنها ماهو من أقصى الحلق ، ومنها ماهو من أدنى الفم ، ومنها ما هو فى الوسائط بين ذلك(١) .

وقد دعا قدامة بن جعفر إلى أن يكون اللفظ سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة(٢) .

وأشاد بالكلام الموزون ، إذ يقول: فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله ﷺ ، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك ، فمنه ما روى عنه — عليه السلام من أنه عوذ الحسن والحسين — عليهما السلام — فقال : « أعيذهما من السامة والهامة ، وكل عين لامة » ، وإنما أراد ملمة فلإتباع الكلمة أخواتها فى الوزن قال : « لامة » وكذلك ما جاء عنه ﷺ ، أنه قال : « خير المال سكة مابورة ، ومهرة مأمورة » فقال مأمورة من أجل مو بورة ، والقياس مؤمرة ، وجاء فى الحديث : « يرجعن مأزورات غير مأجورات » .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ٩٦ (٢) نقد الشعر ٧٤

قال ابن الأثير : وإنما أراد « ملمة » ، لأن الأصل فيها من « ألم » ، فهو « مـــلم » .

وكذلك قوله ﷺ : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » وإنما أراد « موزورات » من الوزر ، فقال « مأزورات » لمكان مأجورات طلباً للتوازن والسجع ، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع(١) .

إن الخاصية فى فصاحة هذه اللغة ، ليست فى ألفاظها ، كما أن الهمزة والطرب ، ليست فى النغمات ، ولكن فى وجوه تأليفها ، وهذا هو الفن كل الفن فى الأسلوب ، لأنه يرجع إلى الذوق الموسيقى فى حروف هذه اللغة وأجراس حروفها(٢) .

وقد أشاد أبو هلال العسكرى ، بحسن تأليف الكلام وجمال رصفه ، إذ يقول : وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً ، ومع ســـوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة ، وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيداً ، كان أحسن موقعاً ، وأطيب مستمعاً ، فهو بمنزلة العقد ، إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها ، كان رائعاً فى المرأى ، وإن لم يكن مرتفعاً جليلا ، وإن اختل نظامه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا .

وحسن الرصف أن توضع الألفـــاظ فى مواضعها ، وتمكن فى أماكنها «(٣) .

هذا . وقد كان منطق القوم يجرى على أصـــل من تحقيق الحروف

---

(١) نقد الشعر ٨٥ ، والمثل السائر ج ١/٢١١

(٢) تحت راية القرآن .   (٣) الصناعتين ١٦٧

وتفخيمها ، ولـكن أصوات الحروف ، إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها ، كيف اتفقت ، فلا بد لها من ذلك من نوع فى التركيب وجهة من التأليف ، حتى يمازج بعضها بعضاً ، ويتألف منها شيء مع شيء فتتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ، ويكون منها اللحن الموسيقى ولا يكون إلا من الترتيب الصوتى الذى يثير بعضه بعضاً على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده(١) .

إن الحروف التى هى أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر .

وإنك تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية على غيرها . كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور فى النفس ، ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه ، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه(٢).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٤٢

(٢) سر الفصاحة ٥٥

جرس الألفاظ فى البديع

والمحسن اللفظى نوع أخاذ من فن البديـــع ، وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ ، فهو ليس فى الحقيقة إلا تفننا فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام ، حتى يكون له نغم موسيقى ، وحتى يسترعى الآذان بألفاظه ، كما يسترعى القلوب والعقول بمعانيه ، فهو مهارة فى نظم الكلام ، وبراعة فى ترتيبها وتنسيقها ، ومهما اختلفت أصنافه ، وتعددت طرقه ، يجمعها أمر واحد ، وهو العناية بحسن الجرس ، ووقع الألفاظ فى الأسماع ، ومجىء هذا النوع فى الشعر يزيد من موسيقاه ، وذلك لأن الأصوات التى تتكرر فى حشو البيت ، مضافة إلى ما يتكرر فى القافية ، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم ، مختلفة الألوان ، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ، ويرى فيها المهارة ، والمقدرة الفنية(١) .

وهو ألوان ، منها الجناس ، والسجع ، ورد والعجز على الصدر .

وقد أثنى الإمام عبد القاهر على الجناس والسجع الخاليان من التكلف لأنهما حينئذ يخدمان المعنى — والألفاظ خدم المعانى — وذكر أن المقام قد يقتضيهما والحال قد يستدعيهما ، حتى إنه لورام المتكلم تركهما لدخل فى عقوق المعنى .

يقول الإمام عبد القاهر : مثال ما جاء من السجع هذا المجىء وجرى هذا المجرى ، فى لين مقادته ، وحل هذا المحل من القبول قول القائل(٢) : اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً ، فلامجد إلا بفعال(٣) ولا فعال إلا بمال .

---

(١) موسيقى الشعر ٤٥

(٢) هو قيس بن سعد بن عباده الخزرجى الأنصارى

(٣) الفعال : بالفتح : الكرم

ولست تجد هذا الضرب يكثر فى شىء ؛ ويستمر كثرته واستمراره فى كلام القدماء كقول خالد (١) ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ؛ وبهيمة مهملة ؛ وقول الفضل(٢) بن عيسى الرقاشى : سل الأرض ، فقل من شق أنهارك ؛ وغرس أشجارك ؛ وجنى ثمارك فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

وإن أنت تتبعته من الأثر . وكلام النبى ﷺ تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت . وذلك كقول النبى عليه السلام «الظلم ظلمات يوم القيامة » وقوله صلوات الله عليه : «لاتزال أمتى بخير . مالم تر الفىء مغنما . والصدقة مغرما» وقوله : يا أيها الناس أفشوا السلام . وأطعموا الطعام . وصلوا الأرحام . وصلوا بالليل والناس نيام . تدخلوا الجنة بسلام» فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظاً اجتلب من أجل السجع . وترك له ما هو أحق بالمعنى منه . وأبر به . وأهدى إلى مذهبه . ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء . بقوله حلأت ركابى . وشققت ثيابى . وضربت صحابى فقال له العامل : «أوسجع أيضاً » إنكار العامل السجع حتى قال : فكيف أقول ؟ وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ولم يره بالسجع مخلا بالمعنى أو محدثاً فى الكلام استكراهاً أو خارجا إلى تكلف ، واستعمال لما ليس بمعتاد فى غرضه .

وقال الجاحظ : لأنه لو قال : حلأت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى(٣) لكان لم يعبر عن خفى معناه وإنما حلئت ركابه فكيف

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم

(٢) هو الفضل بن عبد الصمد

(٣) الصرمة : القطعة من الإبل قيل : ما بين العشرين إلى الثلاثين : وقيل : ما بين الثلاثين إلى الخمسين والأربعين — لسان العرب .

يدع الركاب إلى غير الركاب وكذلك قوله : وشققت ثيابي وضربت صحابي .

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى إليهما وعبر به الفرق(١) عليهما حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر(٢)

ورد العجز على الصدر فن بديعي — أيضاً — له حسنه وبهاؤه ووقع موسيقى جميل .

كقول عنترة :

فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بذاك المنهل

وقول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا
أبشر بطول سلامة يامربع

وقول زهير :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

وقول الأقيشر الأسدي :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه
وليس إلى داعي الندى بسريع

---

(١) الفرق بالتحريك : الخوف
(٢) أسرار البلاغة ١٧

إن لرد الأعجاز على الصدور موقعاً جليلا فى البلاغة وله فى المنظوم خاصة محلا خطيراً(١)

لأنه يكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائية وطلاوة(٢)

---

(١) الصناعتين ٤٠٠

(٢) العمدة حـ ٢ — ٤

النسق القرآنى البديع

هذا . وقــــد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين ، لسان موسيقى تستمع الأسماع بلفظ كلماته ، وتخضع مقاطعه فى توالبها لنظام خاص وتتردد فى كلماته مقاطع بعينهـا فتستريح إلى ترددها الآذان ، وكل هذا يكسب الـكلام جمالا وكمالا(١) .

وأسلوب القرآن يجرى على نسق بديع ، خارج عن المعروف من نظام جميـع كلام العرب ، ويقوم فى طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم .

إن جميع الفنون التعبيرية عند العرب ، لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا ، وللنظم أعاريض وأوزان محـــددة معروفة ، وللنثر طرائق من السجع والإرسال وغيرهما مبينة ومعروفة .

والقرآن الـكريم ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ، ولا فى قصيره ، وليس على سنن النثر المعروف فى إرساله ، ولا فى تسجيعه إذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة ، فى هذا ولا ذاك ، ولـكنك مع ذلك ، تقرأ بضع آيات منه ، فتشعر بتوقيع موزون ، ينبعث من تتابع آياته ، بل يسرى فى صياغته ، وتآلف كلماته ، وتجد فى تركيب حروفه تنسيقا عجيبا ، بين الرخو منها والشديد ، والمجهور والمهموس ، والممدود والمقطوع .

ومهما طفت بنظرك فى جوانب كتاب الله تعالى ، ومختلف سوره ، وجدته مطبوعا على هـذا النسق العجيب ، فمن أجل ذلك تحير العرب فى أمره ، إذ عرضوه على موازين الشعر ، فوجدوه غـير خاضع لأحكامه ،

---

(١) موسيقى الشعر ٣٢٨

وقارنوه بفنون النثر ، فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه ، فكان أن انتهى المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين(١) .

يقول الرماني : إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة ، ولولا أن الوزن يحسن الشعر ، لنقصت منزلته فى الحسن نقصاناً عظيما ، ولو عمل عامل من الكتان باليد ، من غير آلة ولا حف (٢) مايفوق الدبيقى (٣) ، فى اللين والحسن ، حتى لا يشك من رآه ، أنه أرفع الثياب الدبيقية التى بلغت فى الحسن النهاية ، لكان معجزاً .

ولذلك من جاء بغير الوزن المعروف فى الطباع ، الذى من شأنه أن يحسن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجز (٤) .

وما من عالم أو بليغ ، إلا وهو يعرف ذلك ، ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافة دليلا على إعجازه وعلى أنه ليس من كلام إنسان (٥) .

فهذا الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يذهب إلى بيت أخته ليبطش بها بعد أن نما إلى سمعه ، أنها وزوجها قد أسلما ، ولكنه حين يقرأ الصحيفة التى بيدها ، وفيها آيات من سورة طه ، لم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن ، وروعة نظمه ، فسرعان ماسكن غضبه ، وهدأت نفسه ،

---

(١) الإعجاز فى نظم القرآن ٦٦ (٢) الحف : المنسج

(٣) الدبيقى : نوع من الثياب الرقيقة ينسب إلى بلدة مصرية اسمها دبيق .

(٤) النكت فى إعجاز القرآن ١١١

(٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٢٩

وقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. دلني ياخباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم (١) .

وهذا الوليد بن المغيرة ، يسمع من النبي ﷺ قوله تعالى : «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير »(٢) .

فيقول : والله لقد سمعت منه كلاما ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما يقول هذا بشر (٣) .

وهذا عتبة بن ربيعة يسمع من النبي ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا أكنة مما تدعونا إليه (٤) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءنا أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك

---

(١) تفسير القرطبي ٤٢٠٤ (٢) سورة غافر ١ - ٢ - ٣

(٣) تفسير القرطبي طبعة دار الشعب ٦٨٦٥

(٤) فصلت ١ — ٤

يا أبا الوليد ؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قوله والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم (١) .

إن المسحة اللفظية التى امتاز بها بديع نظم القرآن من خصائصه العليا ، وهذه المسحة تتجلى فى اتساق القرآن وائتلافه ، فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته اتساقا عجيبا ، وائتلافا رائعا ، يسترعى الأسماع ، ويستهوى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور .

إن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية ، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ؛ يفوق فى حسنه وجماله ، كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر ؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها ؛ وتتقارب أنغامها ؛ فلا يفتأ السمع أن يملها ؛ والطبع أن يمجها ؛ ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان ؛ وتتشابه القوافى فى القصيدة الواحدة غالباً وإن طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل ؛ بينما سامع لحن القرآن ، لا يسأم ولا يمل ؛ لأنه يتنقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة وأنغام متجددة . على أوضاع مختلفة . يهز كل وضع منها أوتار القلوب وأعصاب الأفئدة (٢) .

كما تتجلى المسحة اللفظية — أيضاً — فى رصف حروفه . وترتيب كلماته ترتيباً دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس فى كلامهم .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ — ٢٩٢

(٢) مناهل العرفان حـ٢ — ٣٠٩

إنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة ، فى رصف هـــذه الحروف ، بعضها بجانب بعض ، فى الكلمات والآيات ، هذا ينقر ، وذاك يصفر ، وهذا يخفى ، وذاك يظهر ، وهذا يهمس ، وذاك يجهر إلى غير ذلك (١) .

والقرآن الكريم يمثل وحدة موسيقية لا تخضع لوزن الشعر ، بل لوزن الوجدان والنفس (٢)

يقول الرافعى : فإنه إنما يسمع ضربا خالصاً من الموسيقى اللغوية فى انسجامه ، والمراد نسقه ، واتزانه على أجزاء النفس . مقطعاً مقطعاً . ونبرة نبرة كأنها توقعه توقيعاً ولا تتلوه تلاوة ، وما أسلم عمر بن الخطاب على شدته وعنفه إلا حين رق للقرآن(٣) .

إن القرآن الكريم حين تقرؤه . تحس من حروفه وأصواتها وحركاتها ومواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعنى . بأنه كلام يخرج من نفسك وبأن هذه النفس قد ذهبت مع التلاوة أصواتا واستحال كل ما فيك من قوة الفكر والحس إليها وجرى فيها مجرى البيان فصرت كأنك على الحقيقة مطوى فى لسانك (٤)

---

(١) المرجع السابق ج ٢ — ٢١٣

(٢) الإعجاز الفنى فى القرآن ٢٢٢

(٣) إعجاز القرآن ٢٤١

(٤) المرجع السابق ٢٥٢

التلاؤم فى القرآن الكريم

الأسلوب القرآنى يحمل طابعاً ، لا يلتبس معه بغيره ؛ ولا يحمل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه ؛ بل يدع الأعناق تشرئب إليه ؛ ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور .

إن أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن الكريم ؛ خاصية تأليفه الصوتى فى شكله وجوهره .

دع القارىء المجود ، يقرأ القرآن،يرتله حق ترتيله ، نازلا بنفسه على هوى القرآن وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكاناً قصيا ، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناتها واتصالاتها وسكتاتها ؛ ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية ؛ وقد جردت تجريداً وأرسلت ساذجة فى الهواء ؛ فستجد منها بإزاء لحن غريب عجيب ؛ لا تجده فى كلام آخر ، لوجرد هذا التجريد ، لاتجده فى وجود هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ؛ على أنه ليس بأنغام الموسيقى .ولا بأوزان الشعر . وستجد شيئاً آخر لا تجده فى الموسيقى ولا فى الشعر .

ذلك أنك تسمع القصيدة من الموسيقى ، فإذا هى تتشابه أهواؤها . وتذهب مذهباً متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمجها وطبعك أن يملها . إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد بينما أنت من القرآن أبداً فى لحن متنوع متجدد تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة

يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء . فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد(١).

لقد جمع القرآن الكريم بين موسيقى الشعر ، حيث نغمـة الوزن ، والاهتزاز النفسي ، وموسيقى النثر حيث الإيقاع العميق الذى يحدثه دقة التوزيع وحسنه بين الحروف ذاتها والـكلمة والعبارة والآية والسورة ، وموسيقى الحس ، حيث مشاركة الحواس ، لاهتزازات النفس ، وقوة إرهافها لتموجات الموسيقى أياً كان مصدرها ، وموسيقى الروح ، حيث النشوة الهادئة النابعة من مجموع أنواع الموسيقى التى سبق ذكرها، فالقرآن اكتمال لنماذج موسيقية حية فى تراكيب خالدة للغة العرب(٢) .

إنك إذا ما اقتربت بأذنك قليلا قليلا، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لذة أخرى ، فى نظم تلك الحروف ورصفها ، وترتيب أوضاعها فيما بينها ، هذا ينقر ، وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوى ماثلا أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معـاظلة ، ولا تناكر ولا تنافر وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضرى الفاتر ، ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها ، برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديراً لا يبغى بعضهما على بعض ، فإذا مزيج منهما ، كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل عندها تلتقى أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتى قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنى.

---

(١) النبأ العظيم ١٠٢

(٢) الإعجاز الفنى فى القرآن ٢٢٢

وليس الشأن فى هـــذا الغلاف ، إلا كشأن الأصداف ، مما تحويه من اللآلىء النفيسة ، فإنه جلت قدرته ، قد أجرى سنته فى نظام هذا العالم أن يغشى جلائل أسراره ، بأستار لا تخلو من متعة وجمـــال ، ليـكون ذلك من عوامل حفظهـا وبقائهـا ، بتنافس المتنافسين فيها ، وحرصهم عليهـا .

انظر كيف جعل باعثة الغذاء ، ورابطة المحبة ، قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة ، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التى أودعها هذا الكتاب الكريم ، قضت حكمته أن يختار لها صوانا يحببها إلى الناس بعذوبته ويغريهم عليها بطلاوته ، ويكون بمنزلة « الحداء » يستحث النفوس على السير إليهـا ، ويهون عليها وعثاء السفر فى طلب كمالها .

لاجرم اصطفى لها من هذا اللسان العربى المبين ، ذلك القالب العذب الجميل ، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً فى أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره ، وصدق الله العظيم « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

إن نظم القرآن يجمع إلى الجمال عزة وغرابة ، وإن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع(٢) .

وهذه الغرابة . كانت قوة أخرى . قامت بها حجة القرآن . فى التحدى والإعجاز واعتصم بهـا من أيدى المعارضين والمبدلين . وإن ذلك الجمال .

---

(١) الحجر ٩

(٢) النبأ العظيم ١٠٤

ما كان ليكفى وحده . فى كف أيديهم عنه . بل كان أجدر أن يغريهم به ذلك أن الناس — كما يقول الباقلانى — إذا استحسنوا شيئاً اتبعوه وتنافسوا فى محاكاته بباعث الجبلة . وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة . يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب . وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم فى اقتداء بعضهم ببعض وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها فى النثر والشعر إلا مناهل موروده ومسالك معبدة تؤخذ بالتعلم وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة كسائر الصناعات.

فما الذى منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شرع فى استحسان طريقته وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية . كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه .

ولا ريب أن أول ماتلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه فى بنيته ، وما اتخذه فى رصف حروفه وكلماته وجمله وآياته من نظام له سمت وحده وطابع خاص به خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه فلا جرم لم يجدوا له مثالا يحال دونه به ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس السابقين منهم أو اللاحقين من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين لأفسد بذلك مزاجه فى فم كل قارىء ولجعل نظامه يضطرب فى أذن كل سامع ولإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفى الكير خبث الحديد وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(١) .

---

(١) فصلت ٤١

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكنز الدفين ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون بل فليت القشرة عن لبها وكشفت الصدفة عن درها فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي وتجلى لك ما هو أبهى وأبهر ولقيك منه ما هو أروع وأبدع(١).

إن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه لحروفه متآخية، في كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر وتسكن عندها فتطمئن النفوس والكلمات في تآخيها في العبارات تنتج موسيقى ونغما يختص به القرآن وحده وإن أي كلام مهما يكن علو صاحبه في البيان لابد أن يكون مختلفاً عن القرآن لا يمكن أن يلحق به لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر(٢).

يقول الرافعي : كان العرب يترسلون أو يحذمون(٣) في منطقهم كيفما اتفق لهم. لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت إلى أن يتفق من هذه قطع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه أوبما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى إن لم يكن في الغاية ففيه ماعرفوه من هذه الغاية.

فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة. قراءتها هي توقيعها فلم يفتهم هذا المعنى وأنه أمر لا قبل لهم به.

---

(١) النبأ العظيم ١٠٦

(٢) المعجزة الكبرى ٢٦٢

(٣) إعجاز القرآن ٢٤٣

وكان ذلك أبين فى عجزهم حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته إلى ماحسبه نظماً موسيقيا ،أو بابا منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ؛ كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ماعداها وليس يتفق فى شىء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع(١) .

اقرأ قوله تعالى : « استوى على العرش وسخر الشمس والقمر»(٢) .

راع قرب مخارج الحروف واعتدالها فى هذه الألفاظ فالسين والتاء فى لفظة « استوى» من أول الفم ومن طرف اللسان وبعدهما حرفا مدهما الواو والألف المقصورة مما يعطى النفس إعانة فى النطق وراحة فى الأداء ، ثم لم التعبير « بعلى » دون فوق تلك التى تؤدى معنى العلو ؟

ذلك لأن لفظة « على » تعطى المعنى على أتم وجه ، يتناسب مع العلو المطلق الذى رسمته لفظة « استوى » ، وأعجب من ذلك ، تقارب الحروف فى قوله « على العرش » فالعين من أقصى الحلق . واللام من طرف اللسان وبعدها لام أخرى فى لفظة « استوى» لكأن الناطق بالحرفين يؤدى حرفا واحداً لسهولة النطق وقرب المخرج ، أى نظم يساوى ذلك التعديل والتلاؤم ؟

---

(١) المرجع السابق

(٢) الرعد ٢

وفى الألفاظ الثلاثة الأخرى فى قوله تعالى «وسخر الشمس والقمر» تجد إلى جانب اللمسة الأولى فى العلو المطلق، تأتى اللمسة الثانية فى جانب العلو المنظور، واللمستان تتجاوران وتتسقان فى السياق، ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير. كما يقول الأستاذ سيد قطب(١).

وبجانب هذا التجاور، انظر لجمال ذكر الشمس بجانب القمر. وإلى رصف تلك الحروف، فالكلمة الأولى تنتهى بحرف الراء، كما فى سخر والكلمة الثالثة تنتهى بها أيضا كما فى لفظ القمر.

ولكن أذكر الشمس قبل ذكر القمر لأجل ذلك التآلف فى الحروف فحسب بحيث تأتى الراء فى الأولى وفى الثالثة متقابلتين؟ ليس ذلك لأجل هذا بل هناك حكم لا يعلمها سوى اللطيف الخبير، ولعل فى تقديم ذكر الشمس على القمر التنويه بأنعام الله بها على سائر المخلوقات.

أما حروف الألفاظ الثلاثة فمعظمها من الحروف الهامسة، كالسين فى «سخر» والشين والسين فى «الشمس»، وهذه الألفاظ بجمعه تؤدى معنى العظمة الكاملة، والقوة القادرة، وهذه الحروف فى همسها وصفيرها كأنما تتبع أحداث هذين الكوكبين العظيمين، وسريانهما فى جوانب الكون الفسيح المترامى الأطراف.

واقرأ قوله تعالى: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»(٢).

تأمل مخارج الحروف فى لفظة «يؤمنون» كيف تشكل الحروف إيحاء

---

(١) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ٢٠٤٥.

(٢) الرعد ١

صوتيا عذبا ، لايمل ترداده ، إذ جاءت المخارج متناسبة فى القرب والبعد ، فالياء من أسفل الفكين ، والهمزة من أقصى الحلق ، والميم من الشفتين ، والنون من طرف اللسان والواو من أعلى الشفتين دون إطباقهما ، حتى لاينقطع النفس ، وحتى يظل الجرس مديداً لا يمل(١) .

والتجويد والترتيل من مظاهر الإعجاز الموسيقى - كما يرى الرافعى .

وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أوغيرهم على طريقة التلاوة فى القرآن ، مما تراعى فيه أحكام القراءة ، وطرق الأداء فإنك لابد ظاهر بنفسك على النقص فى كلام البلغاء ، وانحطاطه فى ذلك عن مرتبة القرآن ، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيرته فأخرجته من صفة الفصاحة ، وجردته من زينة الأسلوب ، وأطفأت رواءه ، وأنضبت ماءه ؛ لأنك تزنه على أوزان لم يتسق عليها فى كل جهاته فلا تعدو أن تظهر من عيبه ما لم يكن يعيبه إذا أنت أرسلته فى نهجه وأخذته على جملته .

وحسبك بهذا اعتباراً فى إعجاز النظم الموسيقى فى القرآن ، وأنه مما لايتعلق به أحد ، ولا يتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه إلا فيه ، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعضه ، مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشى والتكرير وغير ذلك.

ولقد كان هذا النظم عينه هو الذى صفى طباع البلغاء بعد الإسلام ، وتولى تربية الذوق الموسيقى اللغوى فيهم ، حتى كان لهم من محاسن التركيب

---

(١) النظم القرآنى فى سورة الرعد ٩٩ .

فى أساليبهم — مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف — ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم(١) .

اقرأ قوله تعالى « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعا ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير »(٢) .

تجد الآيات إجمالا قصيرة فى جميع أجزاء السورة ، متناسبة فى قصرها مع سرعة الانتقال فى تصوير الحركات ، أو مع إيجاز الأفكار فى التحليل النفسى .

ومقتصرة على العناصر الأساسية للجملة ، خالية من الزوائد خلو الأفكار والمشاهد من التفصيلات ، متناسبة فى تنوعها وانتقالاتها مع تنوع الموضوع ، من فعلية غير مؤكدة ، إلى اسمية مؤكدة ، إلى استفهامية .

إن المرتل يشعر لهذه الآيات ، أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً ، وإذا قرأها قراءة فنية — وذلك هو الترتيل — لاحظ انقسامها إلى عدة نغمات متناسبة ، مع أقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية .

فالقسم الأول : يتألف من خمس فقرات موسيقية ، ذات نغمة واحدة تقل فيها المرود ، وكل فقرة منها تتألف من كلمتين : أولاهما تحتوى على بعض المدود الطويلة ، وثانيتهما وهى فاصلة الآية ، كلمة ثلاثية ، لامد إلا فى آخرها ، ضبحا ، قدحا ، صبحا ، نقعا ، جمعا ، وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها ، وتوالى حروفها المتحركة ، حركة الخيل فى عدوها ، ووقع حوافرها ثم ارتفاعها .

---

(١) إعجاز القرآن ٢٤٥

(٢) العاديات .

أما القسم الثانى من السورة ، فهو أطول نفسا ، وأكثر ممدوداً ، وكأنه يشير بمدوده الطويلة إلى التأمل الطويل ، والهدوء النفسى ؛ وتختلف كلمة الفاصلة فى هذا القسم اختلافا كبيراً ؛ فى جرسها الموسيقى ؛ عن فاصلة القسم الأول كنود — شهيد — شديد .

والقسم الثالث يجمع بين المدود الطويلة فى بعض أجزائه « أفلا يعلم إذا » وتوالى الحركات فى كلمات أخرى « بعثر » . كما أن فاصلته ؛ تختلف عن القسمين السابقين فى نبرتها ؛ وقوة جرسها « قبور ، صدور » .

ويعود القسم الأخير فى نغمة هادئة ناشئة عن الممدود ؛ والميم الساكنة والتنوين ؛ إلى فاصلة تأخذ الياء من القسم الثـــانى . والراء من الثالث .

ويلاحظ أن لبعض ألفاظ السورة جرسا موسيقيا واضحا . مناسبا لمعناها . مثل « قدحا ونقعا » المناسبة لوقع حوافر الخيل . وبعثر المناسبة لانتشار أجساد الموتى بعد خروجها من الأرض . ومثل « حصل » الدالة بصادها المشددة على شدة التقصى والجمع .

فموسيقى النص فى جملتها وتفصيلها . أى فى نغمة الجمل . وجرس الألفاظ . وفواصل الآيات . مناسبة للمشهد والأفكار . ومقابلة لهـا ، وتتنوع بتنوعها ، وتنجسم انسجامها(١) .

إن الموسيقى فى السورة الكريمة ، شديدة وعنيفة ، وفيها خشونة ودمدمة وفرقعة ، وهى تناسب الجو الصاخب المعفر الذى تنشه القبور

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ٢١

والصدور المحصل مافيها بقوة ، وجو الجحود ، وشدة الأثرة فلما أراد لهذا كله ، إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو الصاخب المعفر ، كذلك تثيره الخيل الضابحة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة مع الصباح المثيرة للغبار ، فكان الإطار من الصورة . والصورة من الإطار ، لدقة التنسيق وجمال الاختيار(١)

إنك تجد ألفاظ القرآن الكريم مؤتلفة ، متمكنة فى التئام سردها وتناصف وجوهها ، لا ينازع لفظ واحد منها إلى غير موضعه ، ولا يطلب غير جهته من الكلام ، ولعمرى إن اتفاق هذا الإحكام العجيب ، مع غرابة الوضع ، لهو أغرب منها فى مذهب البلاغة ، وأدخل فى باب العجب لولا أن الأمر إلهى ولا عجب من قدرة الله(٢)

إنه النسق القرآنى جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة ، عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ فى الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخليـــة والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل والتقفية التى تغنى عن القوافى .

وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلى فى سياقه ، يبرز بروزاً واضحاً فى السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة .

اقرأ قوله تعالى : « والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١٠٦
(٢) إعجاز القرآن للرافعى ٢٨٤

ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ماأوحى . ما كذب الفؤاد مارأى . أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة مايغشى . مازاغ البصر وماطغى . ولقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى(١)

هذه فواصل متساوية فى الوزن تقريبا — على نظام غير نظام الشعر العربى — متحدة فى حرف التقفية تماماً ، ذات إيقاع موسيقى ، متحد تبعاً لهذا وذاك وتبعا لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية ، لأنه ينبعث من تآلف الحروف فى الكلمات وتناسق الكلمات فى الجمل ، ومرده إلى الحس الداخلى ، والادراك الموسيقى ، الذى يفرق بين إيقاع موسيقى وإيقاع . ولو اتحدت الفواصل والأوزان .

والإيقاع الموسيقى هنا متوسط الزمن ، تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية فى الطول ، متحد تبعا لتوحد الأسلوب الموسيقى ، مسترسل الروى ، كجو الحديث الذى يشبه التسلسل القصصى ، وهذا كله ملحوظ ، وفى بعض الفواصل يبدو ذلك جليا مثل : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » .

فلو أنك قلت « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة » لاختلت القافية ولتأثر الإيقاع ، ولو قلت : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى » فالوزن يختل ، وكذلك فى قوله تعالى « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى » فلو قلت : ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك قسمة ضيزى ، لاختل الإيقاع ، المستقيم بكلمة « إذن »

---

(١) النجم ١ ، ٢٢

ولا يعنى هذا أن كلمة « الأخرة » أو كلمة « الثالثة » أو كلمة «إذن» زائدة لمجرد القافية أو الوزن ، فهى ضرورية فى السياق ، لنكت معنوية خاصة ، وتلك ميزة فنية أخرى ، أن تأتى اللفظة لتؤدى معنى فى السياق ، وتؤدى تناسباً فى الإيقاع ، دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم للضرورات(١) .

إنها موسيقى القرآن الكريم ونغماته ، استرعت أسماع العرب واستهوت نفوسهم ، ورأوا لها حلاوة ، وعليها طلاوة ، ليست من الشعر وإن علت على أعلى مافيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ ، وإن كانت من جنس كلامهم وإن ذلك التأليف فى النغم والجرس ، مع علو المغزى والمعنى وإحكام التعبير ، ودقة الإحكام ، لا يمكن أن يصل إليه أحد .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة : وقد يقول قائل ، هل هذه الأنغام المؤتلفة مقصودة فى ذاتها ، وهى الإعجاز ؟

فنقول : إننا مهما نحاول فى رد الإعجاز إلى أسباب، لانجد سبباً واحداً بذاته ، وهو الذى اختص بالاعجاز ، بل تضافرت فى ذلك الأسباب ، وكل واحد منها يصلح سبباً قائماً بذاته ، ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجمل والفواصل وأبعادها ، كل هذا فيه إعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها .

وإن الدليل على أن جرس الآيات القرآنية ، بما حوت من حروف وكلمات هو من الإعجاز ، أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن ، لا بمجرد القراءة .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٨٧

فقد قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا »(١) ، وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى . فقد قال تعالت كلماته : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا »(٢) .

فالله تعالى علم نبيه ﷺ ، الترتيل وهو علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، إنما الترتيل قراءة منغمة تنغيما يظهر التناسق في الحروف والجمل والآيات ، ويكشف معانيها ونغماتها ، وتلك هي موسيقى القرآن »(٣)

هذا وملاحظة اتزان الإيقاع في الآيات والفواصل ، تبدو واضحة في كل موضع .

إنك تلحظ الموسيقى الكامنة في التركيب والتي تختل ، لو غيرت نظامه .

اقرأ قوله تعالى : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا »(٤)

فلو حاولت مثلا أن تغير فقط ، وضع كلمة « مني » فتجعلها سابقة لكلمة « العظم » قال رب إني وهن مني العظم ، لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر ، ذلك أنها تتوازن مع « إني » في صدر الفقرة هكذا :

---

(١) المزمل ٤ (٢) الفرقان ٣٢

(٣) المعجزة الكبرى ٢٧٨

(٤) مريم ٢ — ٤

« قال رب إنى »   « وهن العظم منى »

على أن هناك نوعاً من الموسيقى الداخلية ، يلحظ ولا يشرح ، وهو كامن فى نسيج اللفظة المفردة . وتركيب الجملة الواحدة ، وهو يدرك بحاسة خفية ، وهبة لدنية .

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية ، فى بناء التعبير القرآنى موزونة بميزان شديد الحساسية ، تمليه أخف الحركات والاهتزازات(١)

إن نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض فى الجمل ، والجمل يتآلف نغمها بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فإن الآية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء ، إن كانت الآية فى تبشير ، كما تتلاءم نغماتها قوية إذا كانت فى إنذار أو وصف عذاب .

اقرأ قوله تعالى :

« هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن . ولا يغنى من جوع . وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة »(٢) .

تجد فى هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين ، أولهما : وصف

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٩٠

(٢) الغاشية ١ — ١٦

الجحيم وأصلها ، وتجد فيه الألفاظ والمعـــانى والنغم ، كله يلقى بالألم فى النفس ، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العتيد .

والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيها الراحة ، والاطمئنان والقرار والسعادة ، ويشترك فى هذا ألفاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لا تسمع(١) .

وانظر إلى تنسيق الإطار والنطاق ، مع الصورة والمشهد ، ثم الإيقاع الموسيقى الذى يناسب هذا كله .

إقرأ قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث »(٢) .

لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعة ، والرضا الشامل ، والشجى الشفيف « ماودعك ربك وماقلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » ثم « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » ذلك الحنان ، وتلك الرحمة ، وذاك الرضا ، وهذا الشجى ، تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية فى التعبير ، الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء الشجية الإيقاع . فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضا الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليـل

---

(١) المعجزة الكبرى ٢٦٤ (٢) الضحى .

الساجى ، أصفى آنين ، من آونة الليل والنهار ، وأشف آنين تسرى فيهما التأملات ، وساقهما فى اللفظ المناسب .

فالليل هو « الليل إذا سجى » لا الليل على إطلاقه . بوحشته وظلامه . الليل الساجى الذى يروق ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، كجو اليتم والعيلة ، ثم ينكشف ويجلى ، ويعقبه الضحى الرائق مع « ماودعك ربك وماقلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » فتلتئم ألوان الصورة ، مع ألوان الإطار ويتم التناسق والاتساق(١) .

وقد يكون للإطار أكثر من لون محدد ، لأن الصورة التى بداخله كذلك .

إقرأ قوله تعالى : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وماخلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى ، فأنذرتكم ناراً تلظى ، لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى »(٢) .

فهنا صورة فيها الأسود والأبيض ، فيها « من أعطى واتقى » و « من بخل واستغنى » وفيها من ييسر لليسرى . ومن ييسر للعسرى . وفيها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى . والأتقى الذى سوف يرضى .

وفى الإطار كذلك الأسود والأبيض . فيه الليل إذا يغشى ؛ وفيه

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١٠٥ (٢) سورة الليل.

النهار إذا تجلى ، المقابل تماماً لليل إذا يغشى . وهنا : الذكر والأنثى . المتقابلان فى النوع والخلقة .. فذلك إطار مناسب للصورة التى يضمها .

أما الموسيقى المصاحبة ؛ فهى أخشن وأعلى من موسيقى « والضحى والليل إذا سجى » ولكنها ليست عنيفة ولا قاسية . لأن الجو للسرد والبيان أكثر مما هو للهول والتحذير ؛ وذلك من بدائع التناسق بلا جدال(١) .

إنه القرآن الكريم ؛ كلما أخذت فيه على وجهه الصحيح ؛ فلم تخل بآدائه ، رأيته غضاً طريا . وجديداً مونقا . وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا . وحسا موفورا وهذا أمر يستوى فى أصله العالم الذى يتذوق الحروف . ويستمرىء تركيبها . ويمعن فى لذة نفسه من ذلك . والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف . وإلا مايميزه من أجراسها على مقدار مايكون من صفاء حسه ورقة نفسه . وهو لعمر الله أمر يوسع فكر العاقل . ويملأ صدر المفكر . ولا نرى جهة تعليله . ولا نصحح منه تفسيراً . إلا ماقدمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية وتساوق هذه الحروف . على أصول مضبوطة من بلاغة النغم . بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها . ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطاً وإيجازاً وابتداء ورداً . وإفراداً وتكريرا(٢) .

إقرأ قوله تعالى : ربنا إنك تعلم مانخفى ومانعلن . ومايخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة . ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى . وللمؤمنين يوم الحساب(٣) .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١٠٥

(٢) إعجاز القرآن ٢٤٨ (٣) إبراهيم ٣٨ — ٤١

تجد أسلوباً منسجما مع الدعاء كل الانسجام . فيـــه روح التموج والاسترسال .

واقرأ قوله تعالى : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال . ونادى نوح ابنه . وكان فى معزل يابنى اركب معنا . ولا تكن مع الـكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين(١) .

إن التـكوين الموسيقى للجملة . ليذهب طولا وعرضا . فى عمق وارتفاع ليشترك فى رسم الهول العريض العميق . والمدات المتواليـة المتنوعة . فى التكوين اللفظى للآية . تساعد فى إكمال الإيقاع . وتكوينه واتساقه . مع جو المشهد الرهيب العميق .

واقرأ قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »(٢) .

ليرتل القارىء هذه الآيات . بصوت مسموع . ليدرك تلك الموسيقى الرخية المتماوجة . إنها تشبه الموجة الرخية . فى ارتفاعها لقمتها وانبساطها إلى نهايتها . فى هدوء واطمئنان . يتفقان مع جو الطمأنينة فى المشهد كله . ولعل لتوازن المد إلى أعلى بالألف . وإلى أسفل بالياء على التوالى شأناً فى هذا التموج ، ولـكنه ليس كل الشأن . . فهو يفسر الاتزان الخارجى فى النغمة . لا الروح الداخلى فيهـــا . ذلك الروح مرده إلى خصائص غامضة فى جرس الحروف والـكلمات . يدركه من يقرأ التعبير القرآنى فى حساسية وإرهاف(٣) .

---

(١) هود ٤٢ ، ٤٣ (٢) الفجر ٢٧ — ٣٠

(٣) التصوير الفنى فى القرآن ٩٦

إنه القرآن الكريم ، تألفت كلماته ، من حروف ، لوسقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللا بيناً، أوضعفا ظاهراً ، فى نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفى حس السمع ، وذوق اللسان وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ؛ وتساند الحروف ، وإفضاء بعضها إلى بعض(١) .

اقرأ قوله تعالى : « والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذا كرة خاسرة ، فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة »(٢) .

تجد حركة الإيقاع السريعة ، القصيرة الموجة . القوية المبنى . تنسجم مع جو مكهرب . سريع النبض . شديد الارتجاف(٣) .

واقرأ قوله تعالى: « هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى » .

تجد الحركة الوانية . الرخية الموجة . المتوسطة الطول . تنسجم مع الجو القصصى الذى يلى مباشرة فى السورة حديث الكرة الخاسرة . والزجرة الواحدة وحديث الساهرة(٤) .

إن طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها . وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها . ثم الافتنان فيه بوصفها من الكلام . وباستقصاء أجزاء البيان . وترتيب طبقاته . على حسب مواقع الكلمات لا يتفاوت فى ذلك ولا يختل .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٤٧ (٢) النازعات ١ — ١٤

(٣) التصوير الفنى ٩٤ (٤) المرجع السابق ٩٤

فمن أين يدخل على قارئه ما يكد لسانه ، أو ينبو بسمعه أو يفسد عليه إصغاءه ، أو يرده عما هو منه بسبيله ؛ إلا أن يكون هـذا القارىء ريضا لم تفلح فيه رياضة البلاغة(١) .

إن الـكلمة هي صوت النفس ، وهو الصوت الموسيقى الذى يـكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها ، وحركاتها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه ، على طريقة متساوقة ، وعلى نضد متساو ، بحيث تـكون الـكلمة ، كأنها خطوة للمعنى فى سبيله إلى النفس .

ذلك بأن صوت النفس طبيعى فى تركيب لغتهم ، وإن كان فيها إلى التفاوت كمالا ونقصاً ، وصوت الفكر لا يعجزهم أن يستبينوه فى كثير من كلام بلغائهم ، أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه ، وانفرد به القرآن ، وقد كانوا يجدونه فى أنفسهم منذ افتنوا فى اللغة وأساليبها ، ولـكنهم لا يجدون البيان به فى ألسنتهم ، لأنه من الكمال اللغوى الذى تعاطوه ، ولم يعطوه(٢) .

ومادة الصوت ، هى مظهر الانفعال النفسى ، وإن هـذا الانفعال بطبيعته ، إنما سبب فى تنويع الصوت . بما يخرجه فيه ، مداً أو غنة ، أو ليناً أو شدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة ، فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما فى النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصـــوت إلى الإيجاز والاجتماع ، أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت فى لغة الموسيقى .

فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن ، على طرق الأداء الصحيحة ، لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها ، فى هز الشعور واستثارته من أعماق النفس ،

---

(١) إعجاز القرآن ٢٧٥ (٢) إعجاز القرآن للرافعى ٢٤٩

وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى . وهذه حالة مطردة ، يعرفها الناس جميعاً ، وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن إن فهمه أو لم يفهمه ، إلا اعترته رقة للشجى والنظم . وأحس أن هذه الآيات تتموج فى نفسه ، وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية فى الغناء والشعر وقد لا يجد فى الموسيقى ضربا أسخف منها ، لمكان اختلاف الأذواق .

حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد ، ومن لا يعرفون لله آية فى الآفاق ولا فى أنفسهم ، لتلين قلوبهم ، وتهتز عند سماعه ، لأن فيهم طبيعة إنسانية ولأن تتابع الأصوات، على نسب معينة، بين مخارج الأحرف المختلفة ، هو بلاغة اللغة الطبيعية ، التى خلقت فى نفس الإنسان ، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل ، أو اختلاف اللسان ، وعلى هذا وحده ، يؤول الأثر الوارد أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً ، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوى ، ما يعد نقصاً منه ، إذا لم تجتمع أسباب الأداء ، فى أصوات الحروف ومخارجها ، وإنما التمام الجامع لهذه الأسباب، صفاء الصوت ، وتنوع طبقته ، واستقامة وزنه على كل حرف[1] .

إن نظم القرآن فى مؤتلفه ومختلفه ، وفى فصله ووصله ، وافتتاحه واختتامه وفى كل نهج يسلكه ، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه ، على ماوصفه الله تعالى به — لايتفاوت ، كما قال تعالى « ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »[2] .

---

(١) المرجع السابق ٢٤٦

(٢) النساء ٨٢

ولا يخرج عن تشابهه وتماثله . كما قال تعالى : « قرآنا عربياً غير ذي عوج »(١) .

وكما قال تعالى : « كتابا متشابها »(٢) .

ولا يخرج عن إبانته . كما قال تعالى : « بلسان عربي مبين »(٣) .

وغيره من الكلام كثير التلون . دائم التغير والتنكر . يقف بك على بديع مستحسن ويعقبه بقبيح مستهجن . ويطلع عليك بوجه الحسناء . ثم يعرض للهجر . بجد القبيحة الشوهاء . ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كاللآلئ الزهر(٤) .

ولقد صارت ألفاظ القرآن . بطريقة استعمالها . ووجه تركيبها . كأنها فوق اللغة . فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية . متى أرادها . وهي بعد في الدواوين والكتب . ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه . وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها . لأنها في القرآن . تظهر في تركيب ممتنع . فتعرف به . ولهذا ترتفع إلى نوع أسمى من الدلالة اللغوية . أو البيانية التي هي طبيعة فيها فتخرج من لغة الاستعمال . إلى لغة الفهم : وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة(٥) .

يقول الرافعي : لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها . لرأيت حركاتها

---

(١) الزمر ٢٨ (٢) الزمر ٢٣

(٣) الشعراء ١٩٥

(٤) الإعجاز القرآني للباقلاني

(٥) إعجاز القرآن للرافعي ٢٥٦

الصرفية واللغوية. تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها. فيما هى له من أمر الفصاحة . فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا ؛ ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ؛ مساوقة لها فى النظم الموسيقى ؛ حتى إن الحركة ، ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من أسباب الثقل ؛ أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ ، وربما كانت أوكس النصيبين ، فى حظ الكلام من الحروف والحركة ؛ فإذا هى استعملت فى القرآن ، رأيت لها شأنا عجيباً ؛ ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها ؛ قد امتهدت لها طريقاً فى اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى ؛ حتى إذا خرجت فيه . كانت أعذب شىء وأرقه وجاءت متمكنة فى موضعها. وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظة «النذر» جمع نذير. فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً . فضلا عن جسأة هذا الحرف . ونبوه فى اللسان . وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام . فكل ذلك مما يكشف عنه . ويفصح عن موضعه الثقيل فيه ولكنه جاء فى القرآن على العكس وانتفى من طبيعته فى قوله تعالى :«ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر »(١).

فتأمل هذا التركيب . وأنعم ثم أنعم على تأمله . وتذوق مواقع الحروف . وأجر حركاتها فى حس السمع . وتأمل مواضع القلقلة فى دال «لقد» وفى الطاء من «بطشتنا »وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا » مع الفصل بالمد . كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات . إذا هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد . ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها . كما تكون الأحماض فى الأطعمة . ثم ردد نظرك فى الراء من

---

(١) القمر ٣٦

«تماروا» ، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها . فلا تجف عليه . ولا تغلظ . ولا تنبو فيه . ثم أعجب لهذه الغنة التى سبقت الطاء فى نون «أنذرهم» وفى ميمها . وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى «النذر» .

وما من حرف أو حركة فى الآية ، إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا فى موقعه . والقصد به . حتى ما تشك أن الجهة واحدة فى نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة .. ليس منها إلا مايشبه فى الرأى أن يكون قد تقدم النظر وأحكمته الروية . وراضه اللسان . وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم . ومن بين الحروف . ومن بين الحركات .. إنما تلك طريقة فى النظم انفرد بها القرآن(١) .

واقرأ سورة الحاقة . تجد السورة افتتحت بثلاث آيات قصيرة متوالية . شديدة الوقع . جديدة فى التعبير . تطول بالتدريج شيئاً فشيئاً : «الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة»(٢)

ثلاث موجات متعاقبة متدرجة فى الطول . وكلها قصيرة يتوالى فيها السؤال والاستفهام . وتتكرر فيها كلمة «الحاقة» وهى الكلمة الجديدة التى تعبر هنا عن يوم القيامة والحساب . وتتكرر فيها هذه القاف المشددة التى تقرع السمع قرعا ، والمسبوقة بالمد الطويل الممهد لها . المبرز لشدتها . والمختومة بالهاء التى تنطفىء عنها عندها شدتها .

إنها لمقدمة مثيرة من حيث معناها . ومن حيث نغمتها وجرسها ، يتهيأ بها السامع كل التهيؤ للإصغاء ويستعد لتلقى ما سيتلى عليه من أنباء

---

(١) إعجاز القرآن ٢٥٧

(٢) الحاقة ١ — ٣

إن السورة تتألف من آيات يغلب عليها القصر، فقد تكون الآية كلمة واحدة، كالحاقة، أو كلمتين، أو بضع كلمات، ولكنها لا تطول كثيراً على كل حال.

وبين الآيات ترابط واتصال، ولا سيما فى كل قسم من أقسام السورة التى شرحناها، فكل قسم من أقسام السورة يتضمن موضوعا أو فكرة واحدة وتتسلسل آياته وتتصل حتى تؤدى المعنى، وتعبر عن الفكرة «فإذا نفخ. وحملت. فيومئذ وقعت. وانشقت».

وإن تنوع الآيات واختلافها فى الطول والقصر، أكسبها جدة وحيوية وكذلك اختلاف تراكيبها، فمنها الجمل الفعلية حين تصوير الحوادث «فإذا نفخ فى الصور. وحملت الأرض. فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ويحمل عرش ربك..».

ومنها الجمل الإسمية للتعبير عن الحقائق الثابتة «إنه لقول رسول كريم» «تنزيل من رب العالمين» «وإنه لتذكرة للمتقين»، ولتصوير الأحوال المستقرة «فهو فى عيشة راضية»، ومن الجمل ما ورد بصيغة الاستفهام للحض على التأمل وإثارة التفكير «ما الحاقة؟ وما أدراك ما الحاقة»؟.

ومنها ما ورد بصيغة التمنى للتعبير عن الحسرة «ياليتنى لم أوت كتابيه، ياليتها..».

وأما سائر الجمل فقد جاءت بصيغة الخبر، ولكن تنوع فيها الفعل، فقد يأتى بصيغة الماضى للتأكيد والتحقيق، مع أنه من حيث المعنى مستقبل «فيومئذ وقعت الواقعة» وقد يأتى بصيغة المضارع لاستحضار الماضى البعيد، فكأنه حاضر قريب «فترى القوم فيها صرعى».

وقد جاءت التعابير فى السورة مجسمة للحوادث مبرزة لها، وذلك

كقوله تعالى «ريح صرصر عاتية» فلفظ صرصر، يصور صوت الريح ولفظ «عاتية» يفيد معنى الشدة و «طغى الماء» فيها نسبة الطغيان، وهو التجاوز والظلم إلى الماء.

وقد رتبت الجمل فى بعض الآيات على غير الترتيب الطبيعى، فتقدم ما حقه التأخير، أو أخر ما حقه التقديم، وذلك كقوله «ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية» فوضع الفاعل فى آخر الجملة، وقدم عليه المفعول والظرف فاكتسبت الجملة بذلك جمالا فى الجرس والنغمة، وكذلك أخر الفعل وقدم المجرور فى قوله «ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه» وكذلك فى عدة آيات أخرى «فما منكم من أحد عنه حاجزين» فليس له اليوم ههنا حميم» وفى كل هذه الآيات، كان للتقديم والتأخير أثر واضح فى حلاوة النغمة بالإضافة إلى دقة المعنى.

وفى السورة — كما ترى — قوة التصوير، والمناسبة بين المعنى واللفظ ففيها ألفاظ مصورة لمعناها، مثيرة لمدلولها كلفظ «غسلين» فهى بجرس حروفها، وصيغتها المنتهية بالياء المحدود بعدها نون توحى بمعناها، وكذلك لفظ «أسلفتم» فهى مناسبة بنعومة جرس حروفها من السين والفاء واللام لمعنى الخير والنعيم و«الدك» فى «دكتا دكة واحدة» مقابلة لمعناها، ومثلها «الحاقة» و «القارعة» بشدة وقعها واحتوائها على حرف القاف، وعلى التشديد بعد المد.

إن قارىء هذه السورة يشعر بالمناسبة التامة، والانسجام الواضح بين موضوعها ونغمتها، فقد جاءت مقدمتها قوية الجرس ذات فواصل قصيرة متلاحقة، متدرجة فى الطول، ثم أعقبتها آيات يغلب عليها القصر، وتتوازن فيها المدود والحركات، فى توزيع منسجم، وهى الآيات التى صورت حوادث التاريخ».

« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية .. الخ» فإذا ما بلغت قوله تعالى « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » شعرت أنك ترتل قطعة موسيقية موزونة ، وتسير فى هذه الموجات المنسجمة حتى آخر هذا القسم من السورة، ثم تنتقل إلى نغمة أخرى ،وفواصل مختلفة«فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » .

وهكذا تتناسب المعانى مع النغمات ، و تنسجم الأفكار مع الأصوات والأوزان، فتشعر بالحسرة والتأوه ، حينما تصغى إلى من أوتى كتابه بشماله « ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ما حسابية . » وتحس بوقع ذلك الصوت الشديد الذى يأمر بزجه فى جهنم فى قوله تعالى : خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » وتحس بطول تلك السلسلة التى يسلك فيها حينما تسمع قوله :« ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه» .

وهكذا . تجد الصلة بين موضوع السورة ونغمة آياتها وحسن تقطيعها والانسجام بين معانيها وأفكارها من جهة ، وموسيقى ألفاظها وتراكيبها من جهة أخرى(١) .

إن الجملة هى مظهر الكلام ، وهى الصورة النفسية للتأليف الطبيعى(٢). وتركيب القرآن الكريم انتظم أسباب الإعجاز ، من الصوت فى الحرف إلى الحرف فى الكلمة ، إلى الكلمة فى الجملة ، حتى يكون الأمر مقدراً على تركيب الحواس النفسية فى الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها(٣) .

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ٣٤

(٢) إعجاز القرآن ٢٦٨

(٣) المرجع السابق ٢٧٠

اقرأ قوله تعالى: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون.
خلق الإنسان من نطفة . فإذا هو خصيم مبين ،
والأنعام خلقها . لكم فيها دفء ومنافع . ومنها تأكلون .
هو الذى أنزل من السماء ماء . لكم منه شراب . ومنه شجر . فيه تسيمون . أموات غير أحياء . وما يشعرون أيان يبعثون(١) .

إن قارىء هذه الآيات ؛ يشعر بسلاسة فى نغمتها الهادئة وبساطة فى تركيبها وحلاوة فى جرسها .

إنه يلاحظ فى هذه الآيات انقسام كل آية منها إلى فقرتين متواليتين الأولى منهما فى الأكثر جملة فعلية جارية على المألوف المعتاد من تركيب الجمل والأكثر فى الثانية أن تكون جملة اسمية والغالب أن تتعادل الفقرتان فى وزنهما أو تتقاربا على أن تنتهى الثانية بفاصلة هى الأكثر الواو والنون .

وقد تتألف الآية من عدة فقرات متواليه متوازنة منسجمة كقوله تعالى : « وهو الذى سخر البحر — لتأكلوا منه لحما طريا — وتستخرجوا منه حلية تلبسونها — وترى الفلك مواخر فيه — ولتبتغوا من فضله — ولعلكم تشكرون »(٢) .

وفى كل فقرة من الفقرات التى تتألف منها الآية حسن توزيع للمدود والحركات يجعل نغمتها هادئة متساوية الأجـــزاء ظاهرة الانسجام والاتساق موافقة فى نغمتها الهادئة الطويلة بعض الطول مع موضوعها الفكرى .

---

(١) النحل الآيات ١ - ٤ - ٥ - ١٠ - ٢١
(٢) النحل ١٤

واقرأ قوله تعالى « والله أنزل من السماء ماء . فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »(١) .

هذه الآيات الكريمة لها طريقة فى تركيبها ، تنسجم فيها النغمة مع الفكرة ، ويتعانق فيها الجرس الموسيقى ، مع المنطق الفكرى .

إن الآيات الثلاثة الأولى تتألف كل واحدة منها من ثلاث فقرات متلاحقة متصلة ، تؤلف كل واحدة منها قطعة لها نغمتها المستقلة .

والله أنزل من السماء ماء — فأحيا به الأرض بعد موتها — إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون — وإن لكم فى الأنعام لعبرة — نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم — لبناً خالصاً سائغاً للشاربين — ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً — إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون .

إن لكل فقرة فى كل آية نغمة موزونة ، يشعر تاليها بانسجامها وسلاستها ، وإن لم تكن كل فقرة جملة مستقلة من الوجهة النحوية لحسن توزع المدود والحركات ، ما بين كلماتها وحروفها ، وتنتهى الفقرة الثالثة فى كل آية بهذه الفاصلة الحلوة التى ينتهى الكلام عندها ، ويستقر الفكر

---

(١) النحل ٦٥ — ٦٩

فيها ، في نتيجته ، وهي المنتهية بهذه الألفاظ « يسممون — للشاربين — يعقلون » .

وأما آية النحل ، ففيها من حسن التقسيم ، ومن التقديم والتأخير ، وتنوع التأليف ، وكثرة الفقرات ، مايجعلها بالإضافة إلى موضوعها ، وطريقتها في الوصف وقوة التمثيل عن طريق مخاطبة النحل ، مايجعلها في غاية الروعة والجمال فكرة وتعبيراً وجرساً .

إن في الآيات الكريمة من إحكام تركيب الجمل ، وتأليف الآيات ، واطرادها على نسق واحد ، مع تنويع ألوان التراكيب وارتفاع هذا التركيب ، إلى المستوى الذي يوازي ماتضمنه من المعاني والفكر ، مالا عهد للعرب به قبل ذلك ، وما يجعلنا نقف أمام بلاغة جديدة ، وفن من القول ، كان لها أثر كبير في رقي اللغة العربية ، وجعلها أداة صالحة جميلة للتعبير عن مفاهيم الحضارة ، ومختلف الأفكار ، وكذلك كان الشأن في المفردات التي تألفت منها الجمل والآيات في اختيارها من كلام العرب اختياراً يجمع فيها دقـــة الدلالة ، وحسن الموقع في الكلام ، وجمال الجرس(١) .

إن ألفاظ القرآن الكريم ، كيفما أدرتها ، وكيف تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ، ومن أي جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها في نفسك مادون اللذة الحاضرة والحلاوة البادية ، والانسجام العذب ، وتراها تتساير إلى غاية واحدة وتسفح في معرض واحد .

تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة ، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة وتذهب في طبقات البيان ، وتنتقل في منازل البلاغة ، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب ، وتشرب قلبك الروعة(٢)

---

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ٦٦ (٢) إعجاز القرآن ٢٧٤

وفى القرآن الكريم أنواع كثيرة من التراكيب ، تتدرج من الجملة البسيطة القصيرة ، التى تقتصر على أبسط عناصرها ، إلى الجملة المركبة الطويلة المؤلفة من عناصر متعددة ، بينها ترابط وتشابك .

ومن الجملة البسيطة القصيرة قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى »(١) .

وقوله تعالى : واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيــه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين »(٢) ،

فالمتأمل لهذه الآيات يجد أنها مؤلفة من جمل قصيرة ، مقتصرة على عناصرها الأساسية ، من الفعل والفاعل والمفعول به ، أو المجرور ، من غير تعدد هذه العناصر ، مع مراعاة التناسق وجمال النغمة(٣) ،

إن ألفاظ القرآن الكريم — كما رأيت — لا يمنعها اختلاف حروفها ، وتباين معانيها ، وتعدد مواقعها ؛ من أن تكون جوهراً واحداً فى الطبع والصقل ، وفى الماء والرونق ، كأنما تتلاحم بروح حية ، ماهو إلا أن تتصل بها ، حتى تمتزج بروحك ، وتخالط إحساسك . فلن تكون معها إلا على حالة واحدة .

---

(١) النجم ٤٣ — ٥١ (٢) الشعراء ٦٩ — ٨٢
(٣) دراسات أدبية ١٤٠

فأنت ما دمت فى القرآن حتى تفرغ منه ، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، وإن اختلفت أجزاؤها ، فى جهات التركيب ، وموضع التأليف وألوان التصوير ، وأغراض الكلام (١) .

يقرأ الإنسان طائفة من آياته، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس، ترافد ما بعدها وتمده ، فلا تزال هذه الصفة فى لسانه ولو استوعب القرآن كله ، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هى فيه ، أو دفعتها عن ماء هى إليه ، ولا يرى ذلك كله إلا سواء وغاية فى الروح والنظم والصفة الحسية (٢) .

إن قارىء القرآن الكريم ، يشعر شعوراً طبيعيا بدافع قوي يدفعه إلى ترتيله ترتيلا صوتيا ، له نغماته ، فى كل كلمة من كلماته، بل فى تتابع حروفه وحلاوة النغمة فى الكتاب العزيز، تتخلل الآية فى جميع أجزائها وحروفها، ولا تقتصر على الوقوف عند الفاصلة فى آخر الآية .

والمهم فى النغمات القرآنية تناسبها مع الموضوع والفكرة شدة ولينا، وسرعة وبطأ .

فإذا كان الموضوع حديثا عن يوم القيامة وهولها وتعاقب أحداثها ، قصرت الآيات ، وكثرت فيها الحروف ، ذات الشدة والصليل ، وقلت المـــدود .

كقوله تعالى : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٣) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ٢٧٤

(٢) المرجع السابق ٢٧٥ (٣) القيامة ٧ — ١٠

وإذا كان الكلام دعاء جاءت المدود التى تكسب النغمة هدوءاً وطولاً وتصور التأمل العميق، ونداء المستغيث .

كقوله تعالى : ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١) .

إنك تجد موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة .

واستمع إلى قول من استحق بعد الحساب دخول النار ، إذ يعبر عن حسرته ويتأوه .

يقول تعالى : « وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية » (٢) .

ثم انظر كيف تتغير النغمة ، وتأتى حروف الواو لتصور دفعه إلى جهنم دفعاً ، ثم كيف تطول الآية والنغمة فى آخرها حين تلتف حوله سلسلة طويلة من سلاسل جهنم .

« خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » (٣) .

وتتنوع نغمات الآيات طولا ووزنا وفاصلة .

---

(١) آل عمران ١٩١ — ١٩٤ (٢) الحاقة ٢٥ — ٢٩ .
(٣) الحاقة ٣٠ — ٣٢

فقد تتماثل وتتساوى الآيتان ، كقوله تعالى : إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم(١) .

وقد يكون التوازن مع اختلاف الفاصلة ، كقوله تعالى : ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثه (٢) .

وقد تتوالى الآيات كموجات متساوية متتابعة ، كقوله تعالى: فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود(٣) .

وقوله تعالى : إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، (٤) .

وقد تتصاعد الموجات وتتسع وتطول فى تتابعها ، كقوله تعالى ، والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وما قلى ، (٥) .

وقد تتنوع الموجات طولا وقصرا ؛ وتتفق فاصلة وتختلف فيتألف من مجموعها قطعة رابعة .

استمع إلى قوله تعالى : « والطور ، وكتاب مسطور ؛ فى رق منشور والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ؛ والبحر المسجور ؛ إن عذاب ربك لواقع ؛ ماله من دافع ؛ يوم تمور السماء مورا ؛وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين ، (٦) .

•

إن النظم القرآنى فى جملته ؛ نظم يبدو فيه الجمال الموسيقى ؛ أوحلاوة النغمة ؛ وليست القضية أبداً قضية نثر مسجوع . إذ شتان بين السجع

---

(١) الغاشية ٢٥ — ٢٦ (٢) الغاشية ١٥ ، ١٦

(٣) الواقعة ٨ — ٣٠ (٤) التكوير ١ — ٤

(٥) الضحى ١ — ٣ (٦) الطور ١ — ١١

والموسيقى . فموسيقى القرآن داخلية . تتخلل الكلام كله . وتنتظم جميع أجزائه ، كلماته وحروفه ، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها والفكرة أو الموضوع . أو المشهد الذى تعبر عنه الآيات (١) .

يقول الرافعى : إنك حين تنظر فى تركيبه . لا ترى كيفما أخذت عينك منه إلا وضعاً غريبا فى تأليف الكلمات . وفى مساق العبارة . وبحيث تبادرك غرابته من نفسها وطابعها مما تقطع أن هذا الوضع . وهذا التركيب ليس فى طبع الإنسان (٢) .

كما يقول الباقلانى : إن نهج القرآن ونظمه . وتأليفه ورصفه . تتيه العقول فى جهته . وتحار فى بحره . وتضل دون وصفه (٣) .

واقرأ إذا شئت لتشعر نفسك بهذه الموسيقى الداخلية ، أى جزء من الكتاب الكريم .

اقـرأ هـذه الآيات : وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتـــدى فإنما يهتدى لنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، (٤) .

ولو قرأت حتى آيات التشريع والأحكام لوجدتها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية .

واصـل جمال النغمة هو السبب فى العـدول فى كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة إلى صياغة خاصة فى الـكلام(٥) .

---

(١) دراسات أدبية لنصوص من القرآن ١٥٦

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ٢٨٣ (٣) إعجاز القرآن للباقلانى ١٨٣

(٤) الإسراء ١٣ — ١٥

(٥) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ١٥٣

فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى فى اللغات الراقية فى صيغ متعددة ، ويمكن أن يؤلف الكلام فى صور شتى ، تختلف فى تراكيبها وأساليب تأليفها ، وكثيراً ما يعدل عن الطرق المألوفة فى التركيب المعتاد ، والتأليف المعهود ، لأهداف فنية ، ومقاصد بلاغية .

اقرأ قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل »(١) .

والتركيب النحوى يقتضى أن تقول : « وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت » فجاء فى الآية « القواعد من البيت » بدلا من قواعد البيت ، وفرق بين إبراهيم وإسماعيل ، لينتهى الكلام بلفظ إسماعيل ، وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة .

وكذلك قوله تعالى : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

فصيغ الجزء الأول من الكلام « الخوف » صياغة إسمية ، والجزء الثانى « الحزن » صياغة فعلية « ولو صيغ كلاهما صياغة إسمية « لا حزن عليهم ولا خوف » أو صياغه فعلية « لا يخافون ولا يحزنون » لما كان للكلام هذا الوقع الجميل (٢) .

وقوله تعالى : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون »(٣) .

فأنت ترى سهولة هذا النظم ، وعذوبة هذه الألفاظ ، وما فى هذا الكلام من الإنسجام ، مع ما وقع فيه من التعطف فى قوله تعالى : « إلى الله » و« أعلم من الله » فإنه إنما عدل عن قوله « أعلم منه » وهو أوجز من الأول ، ليأتى فى الكلام تعطف يزيده حسنا ، وفيه زيادة خضوع وترقق مع تمكين فاصلة الآية ، ومثلها الآية التى بعدها وهى قوله تعالى : « يا بنى

---

(١) البقرة ٣٨ (٢) دراسات أدبية لنصوص من القرآن ١٤٩

(٣) يوسف ٨٦

اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيـــه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »(١) لوقوع التعطف فيها كالأولى .

وهو — كما ترى — أتى الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم ، بسهوله سبك وعذوبة ألفاظ ، وسلامة تأليف ، ووقع فى النفوس ، وتأثير فى القلوب ما ليس لغيره(١) .

اقرأ قوله تعالى : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ماأنا بباسط يدى إليك لأقتلك »(٣) فإن نظم هذه الآية ، عدل فيه عن الترتيب إلى حسن الجوار ، فإن الترتيب عبارة عن ترتيب الجمل ، وترتيب مفرداتها فى الوضع والتأليف فيجب على من قصد الترتيب فى النظم ، أن يقدم الفعل فى الجملة الفعلية ، ويعقبه بالفاعل ، ثم يقدم بعد الفاعل المفعول المطلق ثم المفعول به ، فيقدم منه ما تعدى الفعل إليه بنفسه ، ثم يأتى بعده بما تعدى الفعل إليه بغيره ، إلا أن يمنع من ذلك مانع لفظى أو معنوى ، ومن الموانع ترجيح ضرب من ضروب البديع ، على هذا الترتيب ، يكون الكلام به أفصح وأبلغ ، وأخف وأسهل ، أو المعنى به أتم وأكمل كهذه الآية ، فإنها لو جاء نظمها على الترتيب بحيث يقال : لئن بسطت يدك إلى لتقتلنى ، كما قال فى آخرها ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، يحصل فيها العيب المسمى سوء الجوار الموجب للتركيب ثقلا يعسر النطق به بعض العسر فعـــدل عن الترتيب لأجل ذلك إلى حسن الجوار ، وإنما كان سوء الجوار ، يحصل على الترتيب ، لتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخارج ، وهى الطاء والتاء والياء عند قوله: لئن بسطت إلى يدك ، وإذاجاء النظم على ماجاء عليه أمن

---

(١) يوسف ٨٧ (٢) بديع القرآن ١٦٦

(٣) المائدة ٢٨

هذا المحظور ، ولما كان هذا المحذور معدوما فى ترتيب نظم عجز الآية ، أتى نظم العجز على الترتيب فقدم فيه المفعول الذى تعدى الفعل إليه بنفسه على المفعول الذى تعدى إليه بالحرف فقال : « ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك »(١) .

إن طريقة نظم القرآن ، تجرى على استواء واحد ، فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها ، وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها ، ثم الإفتنان فيه بوضعها من الكلام ، وباستقصاء أجزاء البيان ، وترتيب طبقاته ، على حسب مواقع الكلمات لايتفاوت ذلك ولايختل(٢) .

اقرأ قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى . يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؛ فالق الإصباح ؛ وجعل الليل سكنا ؛ والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ؛ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ؛ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ؛ فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون(٣) .

إنك واجد فى كل كلمة مع أختها إشراقا . لقد ذكر سبحانه . كيف يفلق الحب فيكون زرعا . إذا أتى حصاده أكل منه الإنسان والحيوان . وازينت به الأرض وأتت من كل زوج . وغير ذلك من الصور والأحياء ثم التعبير بفالق النوى . وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارقة الظلال . والأشجار الدانية القطوف واليانعـــة الثمار . ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه النواة اليابسة. وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء . ومن الحب الجامد والنواة الصلبة غصونا حية .

---

(١) بديع القرآن ١٦٠ — (٢) إعجاز القرآن ٢٧٥

(٣) الأنعام ٩٥—٩٨

وزروعا رطبة . وكيف تدور الحياة إلى موت فيخرج الميت من الحى ، وإنما ينبت الزرع ويخضر ويستوى على سوقه بعد أن يخرج شطأه . ثم يصير حطاماً .

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه . فى إشارات بيانية فيها استعلاء . وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه . ثم كان الختام باستفهام إنكارى وتعجب لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته . ثم ختم الكلام بختام فيه رنات قوية ملائمـــة فى معناها ومنبهة للعقول فى نغمها وموسيقاها .

ثم جاء بعد البيان عن الأرض وما فيها من زرع وضرع . وباسقات إلى السماء وما فيها من بروج وأفلاك ونجوم وشمس وقمر . وما يصدر من نور وضياء . وكان الانتقال من الأرض إلى السماء . بتقريب فى الألفاظ والمعانى . فعبر سبحانه عن خروج النهار من الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام فقال سبحانه « فالق الإصباح » وفى ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب والنوى . وشق النور فى الظلام . ثم جعل من بعد نتيجة لهذا الإصباح أن كان الليل سكنا . ووجه الأنظار إلى الشمس والقمر . فجعلهما سبيلا لحسبان الأيام والليالى والشهور . ثم ختم النص بما يفيد أن ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى القدير . وهنا نجد المعنى واللفظ يختمان بختام من القول . يدل على إنتهاء هذا الجزء ومثله فى ذلك — ولكلام الله تعالى المثل الأعلى — كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده . متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق بما يليه .

وقد كانا على مقربة بعضهما ببعض فى نسق بيانى ، لا هو من السجع ولا من الإرسال ولا من الشعر . ولكنه فوق ذلك . وفيه مزايا كل واحدة من هذه الأقسام مع الزيادة التى تجعل الكلام لا يطاول بيانا .

وقد ختم الله الآية الكريمة ، بما يناسب خلق الإنسان الدقيق الذى لا يدركه إلا نافذ البصيرة ، فقال سبحانه : « إن فى ذلك لآيات لقوم يفقهون » فالفقه هو العلم الدقيق العميق الذى يشق الظلام حتى يصل إلى الحقيقة .

ولو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم ، وتلك الموسيقى ، وذلك التآخى لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق ، إنما نعرف تأثيره فى نفوسنا إذا تهدت ووصلت إلى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ولا يعرف سره(١) .

وإذا كان الشعر يمتاز عن النثر بنغماته وإيقاعاته ، كما يمتاز النثر عن الشعر ، بقدرته على تفصيل المعنى وبسطه ، فى القرآن اجتمعت فى أسلوب واحد ميزتا الشعر والنثر .

اقرأ قوله تعالى : إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقابا ، لايذوقون فيها بردأ ولا شرابا ، إلا حميا وغساقا . جزاء وفاقا(٢)

تجد إعجازاً يتجلى لكل ذى عينين . فالإدغام فى المطلع فى النونان . وكثرة التنوين فى المفردات . وإزدحام المدود فى كل مقطع . وتراكم حركات الفتح على الحروف كلها توحى بامتداد الزمن إلى آفاق لا منتهى لها واسترسال فى عذاب أبدى دائم . وأنين مستمر متصاعد . وصوت عظام تتكسر . وصدى أفواه تتقيأ . وصورة صديد يتجرع . ثم شماتة فى النهاية شماته بمن أعرض واستكبر وكفر .

وقوله تعالى : إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(٣) .

تجد الهدوء يعود . والقواصر يطول . والفواصل تتطاول لأن

---

(١) المعجزة الكبرى ٢٦٢

(٢) النبأ ٢١—٢٦ (٣) النبأ ٢٧ — ٣٠

الموضوع عاد إلى تحكيم العقل وبيان السبب . وإقناع الناس بعدل الجزاء وملء القلوب بخشية الله .

وقوله تعالى : إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا جـــزاء من ربك عطاء حسابا(١) .

تجد الوجه الآخر من الصفحة . وهى صفحة الصفاء والهدوء والنعيم، والدعة والسرور والانشراح .

صورة الفريق الثانى من الناس الذين آمنوا بربهم . وصدقوا محمداً ﷺ واتقوا الله . وفى سبيل عقيدتهم حرموا على أنفسهم ما حرم الله . وفى سبيل آخرتهم باعوا شهوات أنفسهم وعاشوا فى الحياة كأنهم ليسوا من أبناء الحياة . إنهم الفائزون ولهم الحدائق وثمراتها . واللذات ومتعتها . والأشربة وفرحتها والصحاب والأحباب وفوق هـــذا كله لهم رضى الله وحبه .

الهدوء فى الكلمات والسكينة فى التعابير واللفة فى القراءة والانسياب فى التعبير والراحة فى وقع هذا كله على الإذن . تجمعت فى الآيات الكريمة ، وتلاحقت وكانت الألفاظ بجرسها صدى للصورة ، ومرآة للمعنى

وقوله تعالى : رب السموات والأرض ، وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، ذلك اليوم الحق ، فمن شاء إتخذ إلى ربه مآبا(٢) .

تجد المقاطع رخية هادئة ، فيها تطاول وامتداد وفيها هدوء وارتياح وفيها إنسياب وانطلاق ، وفيها إجلال ووقار ، تصدح فيها الحروف ، وتسرى الكلمات مطمئنة رخية .

---

(١) النبأ ٣١ — ٣٦ (٢) النبأ ٣٧ — ٣٩

وقوله تعالى : إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم ينظر المرء ماقدمت يداه، ويقول الـكافر ياليتني كنت ترابا (١) .

تجد السورة تنتهي بالإنذار الهادىء ، والزفرة الحرى يطلقهـا من فاته الركب ، وضل عن السبيل ، وما أشبهها بنهاية العاصفة الحمراء المدمرة التى دمرت ما دمرت وأصابت ماأصابت(٢).

إنك تقرأ الآيات القليلة من هذا الكتاب الكريم ، فـتراها فى هذا النسق ، وتلك الطريقة ، بكل مافى اللغـة ، لأنها متميزة بصفتها ، وبائنة بنسقهـا .

ومتى اعتبرنا الشيء بطريقته التى يغالى به من أجلها ، كان الترجيح عند المعادلة للطريقة نفسها ، فـلا عجب أن ظهرت طريقة القرآن بالـكلمات القليلة ، منها على جملة اللغة ، بما وسعت ، ولا بدع أن يكون التحدى من هذه الطريقة ، بمثل تلك الـكلمات على قلتها «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا»(٣).

اقرأ قوله تعالى : إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انـكدرت . وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت. وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ماأحضرت (٤) .

إن الايقاع العام للسورة ، أشبه بحركة جائحة ، تنطلق من عقالهـا

---

(١) النبأ ٤٠ .
(٢) التعبير الفنى فى القرآن ٢٥٩ .
(٣) إعجاز القرآن ٣٠٨ والبلاغة النبوية .
(٤) التكوير ١-١٤ .

فتقلب كل شيء ، وتنثر كل شيء ، وتهيج الساكن، وتروع الآمن ، وتذهب بكل مألوف ، وتبدل كل معهود ، وتهز النفس البشرية هزاً عنيفاً طويلا ، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هى فى عاصفة الهول المدمر الجارف ، ريشة لا وزن لها ولا قرار، ولا ملاذ لها ولا ملجأ، إلا فى حمى الواحد القهار ، الذى له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان".

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله، وتأوى إلى حماه وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار (١) .

ومن القرآن ما تتقارب فيه المقاطع ، كقوله تعالى : « ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . فقال الكافرون هذا شيء عجيب؛ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، فقد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ؛ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج »(٢) .

إنه لا توجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن توجد أمور ثلاثة :

أولها : تقارب مخارج الحروف فى المقاطع ، فالدال والباء والظاء ، مخارجها واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها .

ثانيها : وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ؛ وهو حرف الياء . فى خمسة منها . وواحد بالواو . والوزن فى الخمس الأول منها . وهو وزن فعيل .

---

(١) فى ظلال القرآن حـ ٦ — ٣٨٣٦ .
(٢) ق ١ — ٦ .

وبهذين الأمرين . كان التقارب فى المقاطع . تقارباً بيناً . يجعل نسق القول واحداً ولو لم تتحد المقاطع .

والأمر الثالث . هو إتحاد النغم والموسيقى فى كل المقاطع . فهى كلها مؤتلفة فى حروفها وألفاظها وجملها ومقاطعها . حتى كونت صورة بيانية . تجعل كلام الله العزيز فوق كل مثال .

وقد يكون الكلام فى القرآن خالياً من المقاطع فى بعض الآيات . ولا ينزل فى نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الأعلى .

اقرأ قوله تعالى : « محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . تراهم ركعاً سجداً . يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » (١).

واقرأ — أيضا — من آيات الأحكام قوله تعالى : « وإن كان رجل يورث كلالة . أو امرأة وله أخ أو أخت . فلكل واحد منهما السدس . فإن كانوا أكثر من ذلك . فهم شركاء فى الثلث . من بعد وصية يوصى بها أودين غير مضار : وصية من الله . والله عليم حليم » .

إنما هو كلام الله المنثور من غير إرسال . بل النغم متآخ : والمعانى متلاقية والألفاظ متجانسة . ومتلائمة . مع بيان الأحكام ميسراً سهلا . فلم ينزل ذكر الأرقام بمرتبة الكلام . عن حد التلاؤم والتآخى .

إن التلاؤم فى ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته . ومواضع الوقف فيه ليس فى المخارج فقط . بل هو فيما هو أعلى من ذلك : إنما هو فى

---

(١) الفتح ٢٩ .

(٢) النساء ١٢ .

النغم . وجرس القول وموسيقاه . فلا تجد حرفاً ينشز فى موسيقاه عن أخيه . ولا الكلمة عن أختها . ولا الجملة عن لاحقتها : والآية كلها تكون مؤتلفة النغم فى الغرض الذى سيقت له .

ومن ثم : فإن عجز العرب : لم يكن لأجل المعانى فقط : وإن كانت معجزة : فى ذاتها ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب (١) .

واقرأ من آيات الأحكام — أيضاً — قوله تعالى : يسألونك ماذا أحل لهم . قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين . تعلمونهن مما علمكم الله : فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب (٢) .

أنت تجد فى هذه الآية : من الحكمة والتصرف العجيب : والنظم البارع مايدلك - إن شئت - على الإعجاز ، مع هذا الاختيار والايجاز ، فكيف إذا بلغ ذلك آيات : أو كانت سورة .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل . يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات . ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »(٣) .

وكالآية التى بعدها فى التوحيد ، وإثبات النبوة ، وكالآيات الثلاث فى المواريث أى بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض فى قدرها من الكلام؟ ثم كيف يقدر على مافيها من بديع النظم ؟

---

(١) المعجزة الكبرى ٢٦٦

(٢) المائدة ٤ (٣) الأعراف ١٥٧

وإن جئت إلى آيات الاحتجاج ، كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (١) .

وكالآيات فى التوحيد كقوله تعالى : « هـــو الحى الذى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين » (٢)

وكقوله : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا ، الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن لـه شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا (٣) .

وكقوله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » (٤) إلى آخرها .

وكقوله تعالى « والصافات صفا ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض ، وما بينهما ، ورب المشارق إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ويقذفـــون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » (٥) .

يقول الباقلانى : ارفع طرف قلبك ، وانظر بعين عقلك ، وراجع جلية بصيرتك إذا تفكرت فى كلمة مما نقلناه إليك ، وعرضناه عليك ،

---

(١) الأنبياء ٢٢ ، ٢٣ . (٢) غافر ٦٥ .

(٣) الفرقان ١ — ٢ (٤) الملك ١ .

(٥) الصافات ١ — ١٠ .

ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة ، أو يتم حديثاً وســـورة .

لا ، بل فكر فى جميع القرآن على هذا الترتيب ، وتدبره على نحو هذا التنزيل فلم ندع . ما ادعيناه لبعضه . ولم نصف ماوصفنا إلا فى كله . وإن كانت الدلالة فى البعض أبين وأظهر . والآية أكشف وأبهر .

وإذا تأملت ماهديناك إليه ، ووقفناك عليه : فانظر هل تجد وقع هذا النور فى قلبك ، واشتماله على لبك ، وسريانه فى حسك ، ونفوذه فى عروقك : وامتلاءك به إيقانا وإحاطة ، واهتداءك به إيماناً وبصيرة ؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه ، والهزة تعمل فى جوانبك من لون . والأريحية تستولى عليك من باب ؟

وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له ، والسرور يحركك من عجيب ماوقفت عليه : وتجد فى نفسك من المعرفة التى حدثت لك — عزه ، وفى اليقين سبقا وتحقيقا ، وترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفلة .

هذا كله فى تأمل الكلام ونظامه : وعجيب معانيه وأحكامه (١) .

ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب ، وأنت ترى أن أعجب منه بحيثه على هذا الوجه ، الذى يستنفذ كل مافى العقول البيانية من الفكر ، وكل ما فى القوى من أسباب البحث ، كأنما ركب على مقادير والقوى ، وآلات العلوم ، وأحوال العصور المغيبة ، فتراه يتخير من الألفاظ على درجات ، ليس معنى العجب فيها أن يقع التخير عليها ، ولكن العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز (٢) إنه النظم القرآنى تأليفه كله ،

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ٢٠٠ — ٢٠٢

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ٢٨١

له رنين موسيقى. لقد جرى العرب كتاباً وشعراء ،وخطباء، على أن يجدوا النغم فى فاصلة سجع . أو قافية شعر ولكن نظم القرآن ونغمه ، ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخية فى كلماته ، لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر، وتسكن عندها فتطمئن النفوس ، والكلمات فى تآخيها فى العبارات . تنتج موسيقى ونغما يختص به القرآن وحده ، وأن أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيان، لابد أن يكون مختلفاً عن القرآن ، ولا يمكن أن يلحق به لأنه كلام الله تعالى ، وفوق طاقة البشر(١) .

لقد أدرك الرمانى أن الصوت الذى يسمع من القرآن فى تمازجه وتموجه وتهاديه ، شىء خارق ، لم تألفه الآذان العربية وكأننا لو أغفلنا معانى الكلمات ، والجمل ، وأصغينا إلى هذا القرآن لحناً خالصاً : ونغما صافيا ، لوجدنا فيه شيئا ، ليس فى الكلام . ولا فى مقدور البشر . وهو شىء يعرف بالطبع ، وبعض الناس أشد إحساسا بذلك وفطنة من بعض(٢) .

يقول الرمانى ، والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف ، على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساسا بذلك ، وفطنة له من بعض . كما أن بعضهم أشد إحساسا بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهـة الطباع ، كاختلافهم فى الصور والأخلاق .

والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد ، أوقرب شديد وذلك يظهر بسهولته على اللسان،وحسنه فى الأسماع ، وتقلبه فى الطباع ، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان ، فى صحة البرهان ، فى أعلى الطبقات ، ظهر الإعجاز،

---

(١) المرجع السابق ٢٦٢ .

(٢) الإعجاز البلاغى ١٤٤ .

للجيد الطباع . البصير بجواهر الكلام : كما تظهر له أعلى طبقات من أدناها . إذا تفاوت ما بينهما .

وقد عم التحدى به للجميع لرفع الإشكال . وجاء على جهة الإخبار . بأنه لا تقع المعارضة . لأجل الإعجاز ، فقال عزوجل : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله : وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (١) .

ثم قال « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » (٢) فقطع بأنهم لم يفعلوا . وقال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (٣) .

وقال : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » (٤) :

ولما تعللوا بالعلم والمعانى التى فيه قال: « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (٥)

فقد قامت الحجة على العربى والعجمى بعجز الجميع عن المعارضة ، إذ بذلك تبين المعجزة (٦) .

---

(١) البقرة ٢٣ — (٢) البقرة ٢٤

(٣) الإسراء ٨٨ — (٤) الطور ٣٤

(٥) هود ١٣

(٦) النكت فى إعجاز القرآن ٩٥ — ٩٧

انسجام النغم فى الفواصل القرآنية

الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع ، توجب حسن إفهام المعانى . وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعانى التى يحتاج إليها ، فى أحسن صورة يدل بها عليها .

وحسن فى الفواصل الحروف المتقاربة ، كالميم مع النون ، فى قوله تعالى : « الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين »(١) ، وكالدال مع الباء فى قوله تعالى : « ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب »(٢) ، لأنه يكتنف الكلام من البيان ، ما يدل على المراد ، فى تمييز الفواصل والمقاطع ، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة(٣).

إن الوزن والفاصلة فى القرآن الكريم ، أكسبا نظمه ، قوة فى التعبير ، لأن انسياب النغم الموسيقى فى الآيات بهما ، وتدفقه مع المعانى قوة ولينا ، متمم للأثر القوى ، الذى يحدثه القرآن فى نفوس السامعين ، عن طريق الحس السمعى(٤) .

والفاصلة تكمل معنى الآية ، ويتم بها النغم الموسيقى ، فمكانة الفاصلة من الآية ، مكانة القافية من البيت ، إذا تصبح الآية ، لبنة متميزة فى بناء هيكل السورة .

وتأتى الفاصلة فى القرآن الكريم ، مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ، ولا قلقة ، يتعلق معناها ، بمعنى الآية كلها ، تعلقاً

---

(١) الفاتحة ٣، ٤ (٢) ق ١ ، ٢

(٣) النكت فى إعجاز القرآن ٩٨

(٤) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٢٤٣

تاماً ، بحيث لو طرحت لا ختل المعنى ، واضطرب الفهم ، فهى تؤدى فى مكانها ، جزءاً من معنى الآية ، ينقص ويختل بنقصانها .

كقوله تعالى : ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنـــون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »(١) .

إنك ترى الآية قد كمل معناها بالفاصلة ، وأن الفاصلة قامت بأداء نصيبها منه(٢) .

وقوله تعالى : «قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد »(٣) فإنه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة وتلاه ذكر التصرف فى الأموال ، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب ، لأن الحلم يناسب العبادات والرشد يناسب الأموال .

وقوله تعالى : « أولم يهدلهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون . أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا ، تأكل منـــه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون »(٤) .

فقد أتى فى الآية الأولى « بيهدلهم » وختمها «بيسمعون » ، لأن الموعظة فيها مسموعة ، وهى أخبار القرون ، وفى الثانية « بيروا » وختمها بيبصرون ، لأنها مرئية .

---

(١) البقرة ٢ — ٧

(٢) من بلاغة القرآن ٧٦

(٣) هود ٨٧

(٤) السجدة ٢٦ ، ٢٧

وقوله تعالى: «لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير(١)».

فإن اللطيف يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخبير يناسب ما يدركه.

وقوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»(٢).

فإن فى هذه الفاصلة، التمكين التام، المناسب لما قبلها، وقد بادر بعض الصحابة، حين نزل أول الآية إلى ختمها بها، قبل أن يسمع آخرها فقد أخرج ابن أبى حاتم، من طريق الشعبى، عن زيد بن ثابت، قال: أملى على رسول الله ﷺ، هذه الآية: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين .. إلى قوله خلقا آخر، قال معاذ بن جبل: فتبارك الله أحسن الخالقين فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ مم ضحكت يارسول الله، قال بها ختمت(٣).

وقوله تعالى: إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين(٤).

فإن معنى، اصطفاه المذكورين، يعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون صنف من بعض أنواع العالمين.

وقوله تعالى: «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار، فإذا هم مظلمون(٥)

---

(١) الأنعام ١٠٣ (٢) المؤمنون ١٢ — ١٤
(٣) الإتقان فى علوم القرآن ٢٨ — ١٠١
(٤) آل عمران ٣٣ (٥) يس ٣٧

فإن من كان حافظاً لهذه السورة ، متفطناً ، إلى أن مقاطع ، آيها النون المردفة وسمع فى صدر الآية ، انسلاخ النهار من الليل ، علم أن الفاصلة ، تكون « مظلمون » ، لأن من أنسلخ النهار عن ليله أظلم ، أى دخل فى الظلمات مادامت تلك الحال .

وقوله تعالى : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين(١)

فإن ذكر الرسالة ، مهد لذكر البلاغ والبيان فيه .

وقوله سبحانه : « قيل ادخلى الجنة ، قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين(٢)

لأن ذكر دخول الجنة مهد لفاصلتها(٣)

إنه الإحكام فى صياغة الآيات

وكثر فى القرآن الكريم ، ختم الفواصل ، بحروف المد واللين ، وإلحاق النون وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مدالصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا،وجاء فى القرآن على أسهل موقف ، وأعذب مقطع(٤)

اقرأ سورة «الرحمن» تجدهاذات نسق خاص ملحوظ، إنهاإعلان عام فى ساحة الوجود الكبير ، وإعلام بآلاء الله الباهرة،الظاهرة ، فى جميل صنعه وإبداع خلقه ، وفى فيض نعمائه ، وفى تدبيره للوجود وما فيه ، وتوجه الخلائق كلها ، إلى وجهه الكريم ، وهى إشهاد عام للوجود كله على الثقلين الإنس والجن ، المخاطبين بالسورة على السواء ، فى ساحة الوجود على

---

(١) يس ١٦-١٧
(٢) يس ٢٦-٢٧
(٣) بديع القرآن ٩٠
(٤) الإتقان فى علوم القرآن ج٢/١٠٥

مشهد من كل موجود ، مع تحديهما ، إن كان يملكان التكذيب بآيات الله ، تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها و يفصلها ، و يجعل الكون كله معرضا لها وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها .. تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى ، و امتداد التصويت إلى بعيد ، كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار ، لما يأتي بعد المطلع من أخبار

الرحمن : كلمة واحدة : في معناها الرحمة ، وفي رنتها الإعلان والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ، ومعرض لآلاء الرحمن .

الرحمن . هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاع موسيقاه .

الرحمن . بهذا الرنين الذي تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة ، المدوية في أرجاء هذا الكون ، وفي جنبات هذا الوجود .

الرحمن بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود .

ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ الفضاء والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع ، وكل قلب .

وفي ختام السورة التي استعرضت آلاء الله في الكون ، وآلاءه في الخلق يجيء الإيقاع الأخير ، تسبيحاً باسم الجليل الكريم ، الذي يفني كل حي ويبقى وجهه الكريم ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ، أنسب ختام لسورة الرحمن(١) .

إن من يقرأ سورة الرحمن ، يحس بجمال الوقف ، على رءوس الآيات ويحس بموسيقى الفواصل ، حين يقف عليها جميعا ، بما يسمى السكون قائلا « الرحمن . علم القرآن خلق الإنسان ، علمه البيان الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان »(٢) .

---

(١) في ظلال القرآن ٣٤٥٨ (٢) الرحمن ١ — ٦

فلم تختتم الآيات بحرف النون ، دون غاية معينة ، بل كان هذا تحقيقاً للجمال الموسيقى فى الفواصل ، فكأنمـــا كانت رءوس الآيات قوافى شعرية ، تطمئن إليها الأذن ، وتجد النفوس لذة فى ترددها ، وتوقع هذا التردد (١) .

إن الفاصلة القرآنية ، ترد وهى تحمل شحنتين فى آن واحـد ، شحنة من الوقع الموسيقى ، وشحنة من المعـنى المتمم للآية .

اقرأ قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين » (٢).

وقوله تعـــالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن ، نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ، ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون »(٣) .

وقوله تعالى : « أفأنت تسمع الصم ، أو تهـدى العمى ، ومن كان فى ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتـدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » (٤)

---

(١) من أسرار اللغة ٢٢٧

(٢) الزخرف ٣٣ — ٣٥

(٣) الزخرف ٣٦ — ٣٩

(٤) الزخرف ٤٠ — ٤٣

تجد المفردات القليلة ، حملت من المعنى ، ما يعجز عن تحميله مخلوق من بنى الإنسان .

وإذا سألت عن السر فى كون مفردات العربية ، لم تعط ما أعطته جميع هذه المفردات ، مع أنهما من فرع واحد ، فاعلم أنه النظم ، ولا شيء سواه والذى نعنيه بالنظم ، ما نعنيه بنظم الجوهرة إلى جانب الجوهرة ، ليكون منها العقد الفريد .

يلاحظ فى نظم الفقرة الأولى ، تقديماً كثيراً ، فقد قدمت «لبيوتهم» على متعلقها مرتين ، وقدم الجار والمجـــرور على متعلقه « ومعارج عليها يظهرون » و « لبيوتهم أبوابا » و « سرراً عليها يتكئون ».

كذلك أمر التقديم فى الفقرة الثانية «فهو له قرين» ويا ليت بينى وبينك بعد المشرقين ، و « إنكم فى العذاب مشتركون » .

والأمر نفسه فى الفقرة الثالثة « فإنا عليهم مقتدرون » .

ماذا يعنى كل هذا التقديم فى الأسلوب ؟ إن البلاغيين يقولون إن التقديم يفيد التخصيص ، وهو طريق من طرق القصر ، وفائدته تكون فى لفت النظر ، وتأكيد المعنى ، والجمال التعبيرى .

تأمل ما فى الآيات من وقع مطرب،وانظر بقلبك أثر هذه الفواصل :

« ومعارج عليها يظهرون » « وسررا عليها يتكئون » « والآخرة عند ربك للمتقين » . « ويحسبون أنهم مهتـــدون » « فبئس القرين » « إنكم فى العذاب مشتركون » « ومن كان فى ضلال مبين » « فإنا عليهم مقتدرون » « إنك على صراط مستقيم » .

إن اللحن المنسجم ، والموسيقى التصويرية ، والإيقاع الرتيب ، كان مما حملته تلك الفواصل (١) .

واقرأ قوله تعــالى « يسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، يومئـذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحى القيوم . وقد خاب من حمل ظلما »(٢).

إنه يلاحظ فى الظاهرة القرآنية العالية ، أن الآيات القصار ، تختص عن غيرها ، بأن لها خاصة ، وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة . فتكون وقفة يقتضى السكون عندها .

فالجواب عن حال الجبال وهى أوتاد الأرض . وبهـا تتماسك بأمر الله تعالى . بأن الله تعالى ينسفها نسفا . وفى هـذه يتدبر أمر الله فى نسف الجبال . ويتخيل ذلك . فيـدرك قدرة الله تعالى على الإعادة . ويتدبر الأرض . وقد نسفت جبالها . ليس بهـا علو بتضاريس . ولا انخفاض بجوار علو : وهكذا تتبع الآيات القصيرة والوقوف عند آخر كل آية . وكأن الله سبحانه وتعــالى . يدعوك إلى أن تقف لتتدبر وتتفكر وتعرف مآلك . وأنه لا غرابة فى أن تعـاد الأجساد يوم البعث والنشور .

إن كل آية من هـذه الآيات . تدعو إلى التدبر والتفـكر . فيما تدعو

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٢٨٠

(٢) سورة طه ١٠٥ — ١١١

إليه وما تدل عليه . وقد كانت الفاصلة منبهة إلى التروى فى معناه . والتدبر فى مغزاه . وهى متضامة مع سابقتها ولاحقتها . لتأتى بمعنى كلى جامع . وصورة بيانية رائعة .

وإذا كان هذا شأن الآيات القصيرة ، فى الآيات الطويلة — أيضا — نجد حلاوة النغم . وجمال النسق ، وحسن النظم وطلاوته .

كقوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس . وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه . ومن كان مريضاً . أو على سفر . فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر . ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١)

وقوله تعالى فى قصة بنى اسرائيل : « وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم . وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله . ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٢)

وهكذا تكون آيات القرآن وألفاظه وجمله وكله إعجاز فى إعجاز تدل على أنه اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير (٣)

---

(١) البقرة ١٨٥ — ١٨٦ (٢) البقرة ٦١

(٣) المعجزة الكبرى ٣٠٧

والمدود فى الفواصل ، وهى نهايات الدفقات الصوتية للجمل عند الوقف لها فى القرآن الكريم من الحلاوة والإطراب . حظاً يشير الحكم بأن لها دخلا كبيراً فى الإعجاز .

وهذه المدود إما مطلقة يوقف عليها بصوتها ، وإما ملحقة بحرف صائت تسبقه . وقد تتكرر فى كلمة الفاصلة . فيضاعف التكرير قيمتها . بما لا يخفى جماله ، وأمر إيقاعه .

انظر إلى هذه الفواصل المطلقة.وقد تكرر فى كل من ألفاظها المد فضلا على تجانسها العام فى السياق .

رتل قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها .والأرض وماطحاها ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها، كذبت ثمود بطغواها،إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها،فكذبوه فعقروها،فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها(١).

هذه السورة القصيرة ، ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقى الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية . تنبثق من مشاهد الكون وظواهره .

ثم رتل سورة « ق » كلها واقفاً عند كل فاصلة . وانظر تجاوب المدود فى نفسك . وتثبيتها لجملها . كأنها أطناب الخيام فى منى .

إنها سورة شديدة الوقع بحقائقها . شديدة الإيقاع ببنائها التعبيرى

---

(١) الشمس ١ — ١٥

وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها وتلاحقها في خطراتها وحركاتها . وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفى باطنها وظاهرها .

وما هذه إلا إشارات وراءها أن تعطى سمعك للقارىء ؛ أو بصرك للمصحف مرتلا واعياً ، لترى تكرار الممدود ، وتدرك ما يصنع(١) .

هذا . ولاشك أن نظام الفواصل القرآنية، يتطلب الوقوف على رءوس الآيات لتبرز موسيقاها ، وتستريح الآذان إلى سماعها ، كما تستريح إلى القوافى الشعرية ؛ ولا تتضح موسيقى الآيات إلا بالوقوف على رءوسها(٢) .

يقول الدكتور ابراهيم أنيس : وحين نتتبع الفواصل القرآنية ، نراها بوجه عام ؛ قد بنيت في السورة الواحدة أو فى معظم آياتها على حرف واحد ؛ يتكرر ويتردد مع كل آية ؛ فكأنما هو بمثابة الروى فى القوافى الشعرية ، فإذا لم يتكرر نفس الحرف ، تكرر ما يشبهه من الناحية الصوتية ، كالنون مع الميم مثلا .

وقد يختلف هذا الروى ، بعد عدة آيات فى السورة الواحدة ، نلحظ بصفة خاصة فى الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم ، كما فى سورة المدثر والقيامة والإنسان والنازعات ، وعبس والتكوير وغيرها .

أما طريقة الوقف على هذا الروى ، فبالسكون فى غالب الآيات ؛ وبالألف فى القليل منها .

كقوله تعالى : الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم

---

(١) التكرير بين المثير والتأثير ٦٤ ، وفى ظلال القرآن٣٩١٥ ، ٣٣٥٦

(٢) من أسرار اللغة ٢٢٧

ويفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار »(١) .

وقوله تعالى: إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ، ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما ، لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليما »(٢).

فظاهرة الوقف بالسكون تلك التى استأثرت بكل هـذه الأحكام ، وروعيت فى القرآن الكريم مثل هذه المراعاة ، لم تكن أمراً عابراً أو عارضاً يمثل ناحية متواضعة من نواحى اللغة ، بل كانت صفة من الصفات التى انتظمت معظم القبائل العربية ، وجرت على ألسنتهم جميعاً ، ولم تكن تقل أهمية أو فصاحة عن ظاهرة تحريك أواخر الكلمات فى حالة الوصل ، بل لم تكن أقل شيوعا ودورانا فى أفواه الناس عن ظاهرة الوصل(٣).

والتغاير فى مبنى الفواصل من خواص نظم القرآن الكريم ، وتأتى هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارىء ، وللملاءمة والاتساق ، ومراعاة المعنى ، وليس لمجرد الحلية اللفظية ، وتتحقق تلك الظاهرة فى كثير من السور .

إليك قوله تعالى فى سورة مريم : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم

---

(١) آل عمران ١٩١ — ١٩٣
(٢) النساء ١٤٦ — ١٤٨
(٣) من أسرار اللغة ٢٣٦

أكن بدعائك رب شقيا، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضياً يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا، قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً»(١).

ويستمر هذا السياق على حرف واحد هو الألف إلى نهاية قوله تعالى: «وسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا»(٢).

ثم تبدأ قصة مريم وعيسى عليه السلام على نفس النسق المنتهى بفاصلة الألف.

يقول تعالى: «واذكر فى الكتاب مريم، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا»(٣).

ويستمر — أيضا — هذا السياق على حرف واحد هو الألف إلى قوله تعالى: «والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا»(٤).

ويتغير مبنى الفاصلة، فيأتى على نظام حرف آخر هو النون.

---

(١) مريم ٢ — ٩
(٢) مريم ١٥
(٣) مريم ١٦ — ٢١
(٤) مريم ٣٣

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون،ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون(١) .

وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة فى حرف الفاصلة، تجد أن الفقرة وحدة مستقلة من حيث المعنى ، فحرف الفاصلة قد روعى فيه المعنى والغرض .

ففى القصتين كان حرف الفاصلة الألف ، وقبلها ياء مشددة أو حرف آخر ، وعندما انتهى سرد حوادث القصة ، وأريد تقرير الحكم ، اختلف الحرف تبعاً لاختلاف الموضوع ، لأن لهجة الحكم تقتضى أسلوباً ذا نغم رخيم ، غير نغم وأسلوب الاستعراض،وتقتضى إيحاءاً صوتيا قويا رصينا بدل الصوت الرخى المسترسل الذى تنهجه القصة .

وتنويع حرف الفاصلة ، ليس للاستمرار فى شكل التغاير ، وتنغيم الصوت ،وإنما هو فوق تلك السمات لخدمة المعنى وتقريره(٢) .

إنها الفواصل القرآنية . تأتى لمقتضيات معنوية ، مع نسق الإيقاع بهذه الفواصل، وائتلاف الجرس لألفاظها التى اقتضتها المعانى .على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء(٣) .

اقرأ سورة الفجر لترى التناسق الموسيقى بين الفواصل .

فى بعض مشاهدها جمال هادىء رفيق ، ندى السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندى ، بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة

---

(١) مريم ٣٤ — ٣٥
(٢) النظم القرآنى فى سورة الرعد ١٨٧
(٣) الإعجاز البيانى للقرآن ٢٤٩

فى ثنايا تلك المشاهد . « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر والليل إذا يسر »(١) .

وفى بعض مشاهدها، شدوقصف ، سواء مناظرها، أوموسيقاها، كهذا المشهد العنيف المخيف «كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . وجا ربك والملك صفا صفا . وجىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول ياليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد »(٢) .

وفى بعض مشاهدها . نداوة ورقة . ورضا يفيض وطمأنينة تتناسق فيها المناظر والأنغام . كهذا الختام « ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى»(٣).

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين . وإيقاعها بين بين ، بين إيقاع القصص الرخى ، وإيقاع المصرع القوى .

« ألم تر كيف فعل ربك بعـــاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد »(٤) .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية . وقيمه غير الإيمانية ـ أيضاً ـ وهى ذات لون خاص فى السورة تعبيراً وإيقاعاً «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه

---

(١) الفجر ١ — ٤

(٢) الفجر ٢١ — ٢٦

(٣) الفجر ٢٧ — ٣٠

(٤) الفجر ٦ — ١٤

ربه فأكرمه ونعمه، فيقول ربى أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن »(١).

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التى تنبع منهـــا هذه التصورات وهى تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حباً جما »(٢).

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير. هو قنطرة بين تقرير حالهم: وما ينتظرهم فى مآلهم : فقد جاء بعده : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا . . »(٣). فهو وسط فى شدة التنغيم بين التقرير الأول، والتهديد الأخير.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة وإيقاعاتها فى تعبيرها وفى تنغيمها . كما يبدو تعدد نظام الفواصل . وتغير حروف القوافى . بحسب تنوع المعانى والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق والجمال فى التعبير القرآنى . فوق ما فيها عموما من جمال ملحوظ(٤) .

وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى .

وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا. يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب .

---

(١) الفجر ١٥ — ١٦

(٢) الفجر ١٧ — ٢٠

(٣) الفجر ١٧ — ٢٠

(٤) فى ظلال القرآن ٣٩٠٢

وتراها أكثر ما تنتهى بالنـــون والميم ، وهى الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها . أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرار .

فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة . وتقطيع كلماتها . ومناسبة للون المنطق . بما هو أشبه وأليق بموضعه وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده ، إلا فى الجمل القصار . ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى .

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها طبيعى فى كل نفس فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه(١) .

هذا . ويرى الزركشى أن إيقاع المناسبة فى مقاطع الفواصل حيث تطرد . متأكد جداً . ومؤثر فى اعتدال نسق الكلام . وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيما . ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها .

يقول فى قوله تعالى: « وتظنون بالله الظنونا »(٢) .

ألحقت الألف «بالظنونا» لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف . فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع وتناسب نهايات الفواصل(٣) .

وفى قوله تعالى : «فجعله غثاء أحوى»(٤) أى أحوى غثاء . أى أخضر يميل إلى السواد والموجب لتأخير «أحوى» رعاية الفواصل(٥) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ٢٤٦ — (٢) الأحزاب ١٠
(٣) البرهان فى علوم القرآن حـ١/ ٦٠ — (٤) الأعلى ٥
(٥) البرهان فى علوم القرآن حـ ٣/ ٨٠

كما يلاحظ الزمخشرى ، أن القرآن قد يعدل عن لفظ إلى لفظ مراعاة لحق الفاصلة ، إذ أن الفواصل القرآنية فى سور كثيرة ، يتحد نغمها الصوتى وفى وحدة النغم هذه، تأثير يبلغ مداه فى نفس قارئه وسامعه .. فالزمخشرى من قلة من البلاغيين يرون هذا الرأى، لذلك يفسر بعض الخصائص القرآنية تفسيرا مبنياً على اهتمامه بالناحية الصوتية(١) .

يقول فى قوله تعالى «وتبتل إليه تبتيلا »(٢) .

وانقطع إليه ، فإن قلت : كيف قيل «تبتيلا» مكان «تبتلا» ؟

قلت : لأن معنى « تبتل » تبل نفسه ، فجىء به على معناه ، مراعاة لحق الفواصل(٣) .

كما يقول فى قوله تعالى : «وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »(٤) .

وزيادة الألف ، لإطلاق الصوت ، جعلت فواصل الآى ، كقوافى الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف(٥) .

يقول الدكتور محمد أبو موسى: ولست أرفض أن يراعى القرآن حق الفاصلة . لأن هذا ليس أمرا لفظيا هينا ، كما فهمه كثير من البلاغيين .

وقليل منهم تنبه إلى قيمة الأثر الصوتى ، أو الأثر الموسيقى فى التأثير

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٣٦٩

(٢) المزمل ٨ (٣) الكشاف حـ ٤ / ٥١٢

(٤) الأحزاب ٦٧ (٥) الكشاف حـ٤ /٤٤٤

والإيحاء ، وظل أكثرهم يفهم أن شئون اللفظ، لا تعدو أن تكون محسنات سطحية ، لا تتصل بجوهر البلاغة .

وليس من الخطأ فى الدين ، ولا فى البلاغة . أن نقول إن القرآن يهتم بالناحية اللفظية ، لأنها جزء من أسلوبه، ولأنها من دواعى التأثير، وتلك وظيفة القرآن الكبرى فالغرض منه أولا هو قيادة النفس الإنسانية إلى سبيل الخير فمن الحتم أن يأخذ كل سبيل إلى هذه الغاية فلا يهمل هذا الجانب الهام من بلاغته(١) .

وقد أشاد الإمام عبد القاهر بالجانب اللفظى فى القرآن الكريم وذكر أن له دوراً فى الإعجاز .

يقول الإمام : «وأعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز(٢) .

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٣٦٩
(٢) دلائل الإعجاز ٢٥٢

انسجام النغم فى التكرار

هذا . والتكرار بشتى أنواعه يحدث نوعا خاصا من الإيقاع . تستلزمه العبارة . لأغراض فنية ونفسية واجتماعية ودينية .

فتكرار الضمير المتصل « كم » فى قوله تعالى : « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار . وما لكم من ناصرين ، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون منها ولاهم يستعتبون »(١) .

يمد المغزى قوة فى الجرس والإيحاء ، وتأكيداً للمعنى الوارد بها فى حق الذين استهزؤا بالرسل والكتب السماوية ، وإثارة عن طريق الخطاب المباشر .

إن الإيقاع الذى تحدثه « كم » بجرسها الذى يغلق الشفتين يوحى بصد النفس ومباغتتها بأسلوب هادىء ، كما أنهـــا تنفح بالاحتقار والمهانة واللامبالاة ، وإن « كم » تحمل فى إيقاعها نغمة مشوبة بالدمدمة والزمجرة ، وهذه النغمة تنعكس على النفس فتهزها هزا ، لتبكتها وتطرحها أرضاً مغشياً عليها .

وورود « ذلكم » فى قوله تعالى : « ذلكم بأنكم اتخذتم » جمعاً ، وكان فى الإمكان ورودها مفردة : « ذلك بأنكم اتخذتم » ولو قرئت هكذا لشعر بكسر فى الإيقاع ، إضافة إلى أن ورودها جمعاً ، يحقق غرضا فنيا فيه التناسق فى الصيغة التعبيرية . ونفسيا فيـــه الإسهام مع تكرار « كم » للتأكيد والتأثير .

---

(١) الجاثية ٣٤ ، ٣٥

ويلاحظ — أيضا — تكرار «نسى» مرتين، فى الأولى بصيغة الخطاب المباشر «فنساكم» فى الزمن الحاضر، وفى الثانية بالصيغة نفسها فى الزمن الماضى «نسيتم»، وكون الرد من الفعل نفسه يحدث فى النفس إيقاعا يعتمد فيه على المعنى، ومغزى الرد، فيكون أشد وقعا ووخزا(١).

إن عودة النقرة على الوتر، تحدث التجاوب مع سابقتها، فتأنس الأذن بازدواجهما وتآلفهما، فإن عودة الحرف فى الكلمة تكسب الأذن هذا الأنس لو لم يكن لعودته مزية أخرى تعود إلى معناه، فإذا كان مما يزيد المعنى شيئاً أفاد مع الجرس الظاهر جرسا خفيا، لا تدركه الأذن، وإنما يدركه العقل والوجدان وراء صورته(٢).

تأمل سورة «الناس» وانظر كيف جاءت فى نظمها، وكيف تكررت لفظة الفاصلة وهى لفظة «الناس»، وكيف لا ترى فى فواصلها إلا هـــذا الحرف «السين» الذى هو أشد الحروف صفيراً، وأطربها موقعا من سمع الطفل الصغير، وأبعثها لنشاطه واجتماعه، وكيف تناسب مقاطع السورة عند النطق بها تردد النفس فى أصغر طفل، يقوى على الكلام، حتى كأنها تجرى معه، وكأنها فصلت على مقداره، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها. وكيف تمت الحكمة فى هذا الترتيب العجيب(٣).

إنك إذا قرأت السورة متوالية تجد صوتك يحدث «وسوسة» كاملة تناسب جو السورة، جو وسوسة «الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس»(٤).

---

(١) الإعجاز الفنى فى القرآن ٢٣١
(٢) التكرير بين المثير والتأثير ١١
(٣) تاريخ آداب العرب ج٢ — ١٩٩
(٤) التصوير الفنى فى القرآن ٨٠

ثم انظر إلى حرف «القاف» كيف تردد على هذا الوجه العجيب فى قوله تعالى: الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا. ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا(١).

إن حرف القاف يظهر ظهوراً عجيبا فى هذا السياق، مع كثير من الحروف المكررة. كاللام والنون والتاء والسين والكاف والشين(٢).

واقرأ قوله تعالى: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما(٣).

تجد الآية الكريمة قد أقيم بناؤها الصوتى على ضرب من التنغيم الذى كأنه يتماوج، وأنت تستطيع أن تدرك ذلك بسهولة إذا أصغيت إلى

---

(١) النساء ٧٦ — ٧٨
(٢) التكرير بين المثير والتأثير ٤٤
(٣) الأحزاب ٣٥

أصواتها فى تتابعها وتلاحقها ، فالمسلمين مثـــل المؤمنين ومثل الصادقين والقانتين والخاشعين وهكذا كل أوصاف الذكور متناسبة فى الإيقاع .. والمسلمات والصادقات إلى آخر أوصاف الإناث كلهـا أيضاً متناسبة فى الإيقاع ، ثم تداخلت هذه الأوزان فجاء «المسلمين» بهذا الصوت الممتد إلى أسفل ، وبعـــده المسلمات بهذا الصوت الممتد إلى أعلى ، وأردف ذلك بالمؤمنين ، فعاد الصوت فى إيقاعه إلى حالته الأولى التى بدأ بهـا ، ثم جاء « المؤمنات » فرجع به إلى حالته الثانية وهـكذا ظل الصوت إلى نهاية الآية يتماوج بين هذين الإيقاعين الواضحين ، والذين حددتهما كلمتـا « المسلمين والمسلمات » ثم إن أجراس هـذه الكلمات وما فيها من ترديد لأصوات الحروف التى تتكون منها مادة كل وصف من هـذه الأوصاف ، يتداخل ذلك مع هذا الإيقاع المتماوج ، فتولدت فى الآيه أنغام خاصة لها رنين متميز ، يبعث فى النفس الإيحاء والإيقاظ .

ومن المقرر فى الدراسات الجادة أن أصوات الحروف بله الكلمات تتسرب إلى مركز الحس ومواطن التأثير ، فتشيع الرؤى والأطياف ، وتحمل أوصافها من اللين والقوة والرخاوة والتماسك عملها الخفى والمضمر فى النفس الحساسة ، فإذا ماتكرر صوت الحرف كان كأنه نقرة تتبع أخرى على وتر واحد ، فيتميز الرنين ، ويقوى باعث الإيقاظ والتأثير ، وقل ضعف ذلك إذا تكرر حرفان ، ثم تصور جملة الحروف فى مثل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

واضح أن هذا التكرار ، وذلك التماوج قد أحدثا للآية أنغاما شجية ، يعظم سلطانها على النفس الرهفة فتسلط عليها تسلطا استهوائيا عجيبا ، فتخف

أحلامها، وتتراءى أطيافها مستشرقة نحو السمو إلى مراتب القدس والمناشدة والتطلع الضارع لتكون في جملة هـــذه الصفوة التي أعد الله لها مغفرة وأجراً عظيما(١) .

يقول الدكتور محمد أبو موسى : إن حذف المفعول في قوله تعالى «الحافظات» وقوله تعالى «والذاكرات» كان من بعض دلالته الحفاظ على هذا النغم ومراعاة أثره في النفس .. هذا ويمكن أن نلمس في حذف مفعول «والحافظات» إشارة لماحة إلى صون هـذا المفعول وستره ، فانه موطن الحياء من المرأة ، والمرأة أشد تصونا وأكثر حياء ، فرمز القرآن بحذفه وستره إلى ما يجب من المبالغة في صونه وحفظه(٢) .

ومن التراكيب التي تلفت النظر في القرآن الكريم، تكرار أول الآية، حينما يطول الكلام ، كقوله تعالى : « إني رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»(٣) .

ولو أنك قرأت الآية من غير هذا التكرار للفظ « رأيتهم » لشعرت بالفرق الكبير بين جمال نغمة الآية ، وقوة تعبيرها عن المعنى ، وضعف الجملة بعد الحذف(٤) .

ومثلها قوله تعالى : إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم»(٥) .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني — دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ٢٢٢

(٢) المرجع السابق ٢٢٣ (٣) يوسف

(٤) دراسات أدبية لنصوص من القرآن ١٥٠

(٥) النحل ١١٩

وقوله تعالى : «لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب (١)» .

ولعلك راء فى قوله تعالى «فبأى آلاء ربكما تكذبان» وقد تكرر فى سورة «الرحمن» على أبعاد متجاوبة ، صوت هذا المد الطويل ، يكتنفه ثلاثة مدود قصار ، تؤدى مع التكرار العام للآية ، تنغيما داخليا فيها ، له أخذه وأسره ، ويلاحظ أن المد الطويل : قد وقع فى لفظ الارتكاز من مدار المعنى . وهو «الآلاء» ليزيد تميزاً ووضوحا . فى مقام التمتن،والإلزام بالحجة .

وهكذا تجد قوله تعالى : «الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى »(٢)

يمتزج فيه المدان الطويلان ، بالمدود القصيرة ، امتزاجا يشعر فيه القارىء بتمكين النفى لغير الإله الحق بهذا الطول ، وبتحقيق «الأسماء» الحسنى مقابل النفى ، بالتركيز عليها ، بامتداد صوتها(٣)

---

(١) آل عمران ١٨٨ (٢) طه ٨
(٣) التكرير بين المثير والتأثير ٦٣

انسجام النغم فى رد العجز على الصدر

وفى رد الإعجاز على الصدور ، ملاءمة وتلاحم بين قسمى كل كلام(١) وانسجام فى النغم يهز الوجدان ، وهذا اللون البديعى يعتمد على تكرار اللفظ فى الكلام .

اقرأ قوله تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »(٢) .

وقوله تعالى : « قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى »(٣) .

وقوله تعالى : « أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا »(٤) .

وقوله تعالى : « قال إنى لعملكم من القالين »(٥) .

وقوله تعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون(٦) .

وقوله تعالى : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »(٧) .

---

(١) بديع القرآن ٣٦
(٢) الإسراء ٢١
(٣) طه ٦١
(٤) النساء ١٦٦
(٥) الشعراء ١٦٧
(٦) الأنعام ١٠
(٧) الأحزاب ٣٧

وقوله تعالى : « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً »(١) .

وقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »(٢) .

إن لرد الإعجاز على الصدور – كما رأيت أثره الجميل ، فى حسن الإيقاع وله موقع جليل فى البلاغة .

---

(١) نوح ١٠ (٢) آل عمران ٨

انسجام النغم فى الجناس

الجناس شادخة(١) وجه الكلام(٢) وهذا المحسن البديعى ، جاء فى القرآن الكريم ، ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولا ، أما ما فيه من جمال لفظى ، فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات ، يتطلبها المعنى ولا يغنى غيرها عنها .

إقرأ قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »(٣) .

فكلمة « الساعة » الأولى جىء بها دالة على يوم القيامة ، واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا ، للدلالة على المفاجاة والسرعة ، وكلمة « ساعة » الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين ، فهم لا يحسون أنهم قضوا فى حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جداً . حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا ، ولا بفترة طويلة ، يعبرون عنها بيوم مثلا ، فكانت كلمة « ساعة » خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز .

وما ورد فى القرآن الكريم من جناس غير تام ، فسبيله سبيل الجناس التام .

انظروا إلى قوله تعالى « وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وهم يشعرون »(٤) .

---

(١) شدخت الغرة شدوخا : اتسعت فى الوجه ، والشدخة : النبتة الناعمة الرطبة .

(٢) المثل السائر ج ١ — ٢٦٢ (٣) الروم ٥٥

(٤) الأنعام ٢٦

ألا ترى أن موقف الكفار من القرآن أنهم يبعدون الناس عنه ، كما يبعدون أنفسهم عنه ، فعبر القرآن عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قربهما بقرب معنييهما .

واقرأ قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر »(١) .

وقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »(٢) .

وقوله تعالى « والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق »(٣) .

وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين »(٤) .

فأنت ترى النهى عن القهر ، جاء إلى جانب اليتيم ، بمعنى الغلبة عليه والاستيلاء على ماله ، وأما السائل فقد نهى عن نهره وإذلاله ، فكلا الكلمتين ، جاء فى موضعه الدقيق .

كما وردت كلمتا : « ناظرة وناضرة » أى مشرقة ، وإشراقها من نظرها إلى ربها ، وقد توازنت الكلمتان فى جملتيهما ، لما بينهما من صلة السبب بالمسبب .

واختيار كلمة « المساق » فى الآية الثانية ، لتصور هذه الرحلة التى ينتقل فيها المرء من الدنيا إلى الآخرة ، فكأنه سوق مسافر ينتهى به السفر إلى الله .

---

(١) الضحى ٩ ، ١٠ (٢) القيامة ٢٢ ، ٢٣

(٣) القيامة ٢٩ ، ٣٠ (٤) الصافات ٧٢ ، ٧٣

وفى كلمة « المنذرين » ما يشير إلى الربط بينهم ، وبين «المنذرين» الذين أرسلوا إليهم .

وقل مثل ذلك فى قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة »(١) .

فإن شدة التشابه بين الكلمتين ، يوحى بالقرابة بينهما ، مما يجعل إحداهما مؤكدة للأخرى ، فالهمزة المغتاب ، واللمزة العياب ، فالصلة بينهما وثق كالصلة بين الفرح والمرح فى قوله تعالى : « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون »(٢) .

وإيثار كلمة « النبأ » فى قوله تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين »(٣) لما فيها من معنى القوة ، لأن هذه المادة ، تدل على الارتفاع والنتوء والبروز والظهور ، فناسب مجيئها هنا ، ووصف النبأ تأكيداً لقوته باليقين(٤) .

واقرأ قوله تعالى : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم »(٥) .

فجونس بالانصراف عن الذكر ، صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد ، وهو الذهاب عن الشىء ، أما هم فذهبوا عن الذكر ، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير .

وقوله تعالى « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »(٦) .

فجونس بالقلوب التقلب ، والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر والأبصار تتقلب فى المناظر ، والأصل التصرف .

---

(١) الهمزة ١ (٢) غافر ٧٥
(٣) النمل ٢٢ (٤) من بلاغة القرآن ١٨٣
(٥) التوبة ١٢٧ (٦) النور ٣٧

وقوله تعالى « يمحق الله الربا ويربى الصدقات »(١)

فجونس بإرباء الصدقة ربا الجاهلية ، والأصل واحد . وهو الزيادة إلا أنه جعل بدل تلك الزيادة المذمومة زيادة محمودة(٢)

واقرأ قوله تعالى «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض»(٣)

وقوله تعالى « فأقم وجهك للدين القيم »(٤)

وقوله تعالى «اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة»(٥)

وقوله تعالى : « فروح وريحان »(٦)

وقوله تعالى : « وجنى الجنتين دان »(٧)

وقوله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »(٨)

وقوله تعالى : « إن ربهم بهم »(٩)

وقوله تعالى « وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد» (١٠)

وقوله تعالى : « ثم كلى من كل الثمرات »(١١)

وقوله تعالى : « وأسلمت مع سليمان »(١٢)

إنك تجد هذا المحسن البديعى ، يهدف إلى ناحيتين :

الأولى : صوتية ، وهى توفـــير نوع خاص من الانسجام فى النغم والتقارب فى الأصوات .

---

(١) البقرة ٢٧٦
(٢) النكت فى إعجاز القرآن ١٠٠
(٣) الأنعام ٧٩
(٤) الروم ٤٣
(٥) التوبة ٣٨
(٦) الواقعة ٨٩
(٧) الرحمن ٥٤
(٨) الكهف ١٠٤
(٩) العاديات ١١
(١٠) العاديات ٨،٧
(١١) النحل ٦٩
(١٢) النمل ٤٤

والثانية : معنوية . وهى سرعة الاستدعاء اللفظى للمعنى المراد التعبير عنه(١) .

أو كما قال الإمام عبد القاهر « حسن الإفادة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة »(٢)

« وبعد » فإنه القرآن الكريم ، متلائم فى الطبقة العليا — كما يقول الرمانى — نغمات حروفه متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض فى الجمل ، والجمل يتآلف بعضها مع بعض فى القرآن الكريم كله ، وصدق الله العظيم « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٣)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٧٤٤

(٢) أسرار البلاغة ٢١ (٣) فصلت ٤٢

أهم المصادر والمراجع

١ ــ الإتقان فى علوم القرآن / للسيوطى

٢ ــ الإيضاح / للخطيب القزوينى

٣ ــ أسرار البلاغة / للإمام عبد القاهر الجرجانى

٤ ــ أثر القرآن فى تطور النقد العربى / للدكتور محمد زغلول سلام

٥ ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

٦ ــ إعجاز القرآن / للباقلانى

٧ ــ الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم / للدكتور محمد أبو موسى

٨ ــ الإعجاز البيانى للقرآن / للدكتورة عائشة عبد الرحمن

٩ ــ الإعجاز الفنى فى القرآن / الأستاذ عمر السلامى

١٠ ــ البيان والتبيين / للجاحظ

١١ ــ بديع القرآن / لابن أبى الأصبع

١٢ ــ البرهان فى علوم القرآن / للزركشى

١٣ ــ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى / للدكتور محمد أبو موسى

١٤ ــ تحت راية القرآن / للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

١٥ ــ تفسير القرطبى / للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى

١٦ ــ تأويل مشكل القرآن / لابن تيمية

١٧ ــ تاريخ آداب العرب / الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

١٨ ــ التعبير الفنى فى القرآن / للدكتور بكرى شيخ أمين

١٩ — التصوير الفنى فى القرآن / للأستاذ سيد قطب

٢٠ — التكرير بين المثير والتأثير / للدكتور عز الدين السيد

٢١ — خطوات التفسير البيانى / للدكتور محمد رجب البيومى

٢٢ — دلائل الإعجاز / للإمام عبد القاهر الجرجانى

٢٣ — دراسة أدبية لنصوص من القرآن / للأستاذ محمد المبارك

٢٤ — دلالة الألفاظ / للدكتور إبراهيم أنيس

٢٥ — سر الفصاحة / لابن سنان

٢٦ — سيرة ابن هشام / لابن هشام

٢٧ — الصناعتين / لأبى هلال العسكرى

٢٨ — العمدة / لابن رشيق القيروانى

٢٩ — فى ظلال القرآن / للأستاذ سيد قطب

٣٠ — الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان
لابن القيم الجوزية

٣١ — الكشاف / للزمخشرى

٣٢ — موسيقى الشعر / للدكتور إبراهيم أنيس

٣٣ — المثل السائر / لابن الأثير

٣٤ — مناهل العرفان / للزرقانى

٣٥ — المعجزة الكبرى / للشيخ محمد أبو زهرة

٣٦ — من بلاغة القرآن / للدكتور أحمد بدوى

٣٧ — من أسرار اللغة / للدكتور إبراهيم أنيس

٣٨ — من أسرار التعبير القرآنى / للدكتور محمد أبو موسى

٣٩ — المغنى فى أبواب التوحيد والعدل / للقاضى عبد الجبار

٤٠ — النكت فى إعجاز القرآن / الرمانى

٤١ — نقد الشعر / لقدامة بن جعفر

٤٢ — النبأ العظيم / للدكتور عبد الله دراز

٤٣ — النظم القرآنى فى تفسير سورة الرعد / للأستاذ محمد بن سعد الدبل

٤٤ — واقعية المنهج القرآنى / الأستاذ توفيق محمد سبع

دليل الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

٤٩٩٢ / ١٩٨٨ م